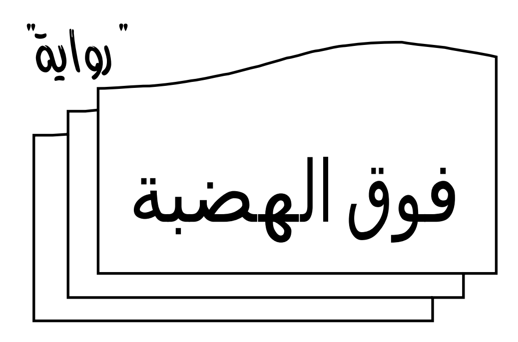

"رواية"
فوق الهضبة

وليد أبو فخر

فوق الهضبة

"رواية"

/فوق الهضبة/

رواية لـ: وليد أبو فخر

الطبعة الأولى: ٢٠٠٧.

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة.

الإخراج الفني: بشار الحلبي

تصميم الغلاف: فيصل حفيان

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار ومؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار ومؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا ـ دمشق ـ جرمانا

هاتف: ٥٦٢٧٠٦٠ ـ تلفاكس: ٥٦٣٢٨٦٠

ص. ب: ٢٥٩ جرمانا

الإهداء...

إلى كل من يعنيهم إشراقة الشمس،

إلى الذين يهمهم ألا تذبل ورود الإقحوان

أهدي روايتي هذه (فوق الهضبة)

المؤلف

تقديم

فـوق الـهـضبة، تحـت الـضوء، وبـين مفـردات الجبـل والبحـر، خيـوط تنسج حكاية الكلمـات، تأخـذك بعيـداً في متاهـات الثلج والمطـر، الحـرف متمـرد، والكلمـة ناطقـة صـامتة، ثنائيـات الليـل والنهـار، ونـسائم تغـازل الـدروب، فـوق الـهضبة هـو العمـل الثـاني الـذي أسـعفني الحـظ أن أقـرأه لروائي يَعِد بابتسامة مشرقة في ليل العبوس الكظيم، ونافذةٍ يتسلل عبر عينيها عبق الإبداع، وسحر الكلمةِ.

وليد أبو فخر مشروع جميل، يطلّ علينـا إطلالـة شـعرية تـشي بنـوع مـن الحضور اللافت الذي يغافلك فتنسى بداية اللقـاء، ليأخـذك بعـدها إلى عـالمٍ ينبض حيوية وطفولـة، يسامرك الحـرف وتغازلـك الكلمـة وتغريك الطقـوس فـإذا أنـت أمـام تفاصيل تأسـرك دون أن يلسعك الملـل، وأمـام حـدائق تختـال أزاهيرها السكرى بدفق الشعرية الـتي تغـدو وشـاحاً لا بـد أن ترتديـه الـنفس التي سئمت جفاف التقرير وخشونة الحشو ومراوغات التكرار وعقم اللغة.

فوق الهضبة تمثّل رحلـة إضـافة إلى كونهـا مشروعـاً تتـألق فيـه اللغـة

الروائية، وتنزاح إلى عوالم جديدة، وآفاق جديدة، تغادر مهدها المألوف ورحمها العادي إلى مدىً أبعد وأعمق وأوسع، تحسّ وأنت تمارس فضول العاشق في تلمس وجه التفاصيل أنك في مغامرة محبّبة فتلجها دون خوف، وتسرق منك الرواية إرادة القرار فتمضي وتمضي دون أن تشعر بقسرية مضنية، لا يرهقك الحرف على الرغم من رشاقته، ولا تتعبك الصورة فهي مقروءة، ولا يضنيك التأويل لأنه يتدفق عفويةً تحتال على الصنعة.

تقرأ في تفاصيل الرواية عادية ليست كالعادية، وألفة تختلف عن الألفة، ووداعة فيها بساطة تبتعد عن معنى البساطة، وكم تلمست مواضع في الرواية يخالها القارئ يسيرة هيّنة ولكن شعريتها تضفي عليها ألقاً إبداعياً لا تستطيع الذائقة الحساسة أن تتجاهله، تسير في القراءة فلا تلتفت إلا للعالم الذي خلقه وليد دون قصدية متآكلة.

كثيرٌ من الأمور تبدو مبتذلة ووحدها الروح التي لا يمكن للنقد الجامد أن يتفاعل معها. تغمرك بإيقاعها النفسي المدهش دون رتابة.

تتصفح أوراق الرواية فكأنما تتصفح الفصول، تدفئك الشمس حتى إذا ما قاربت رمضاء الكلمات أسعفك نسيم بارد، فإذا ما عطشت تتسلل قطرات الثلج دافئة كالثلج باردة كالمساء، ولكن يبقى الضوء في كل مكان مؤنساً وكاشفاً لتفاصيل صغيرة كبيرة.

وربما وقعت على مواضع قليلةٍ لا تتناغم مع جوّ الرواية العام، وهذا ليس مدعاة لتجريح أو قدح وإنّما حتى لا ينحاز الذوق ويمارس تعاطفاً مطلقاً وربما كان مردّ ذلك إلى الحال الموضوعية لروائيٍّ ما زال في البداية ولكنها تستحق أن تحظى بجلّ الاحترام والتقدير والإنصاف.

فوق الهضبة تجربة إبداعية جريئة، وحضور لافت في مشهدنا الروائي ورؤية متميّزة ومغامرةٌ لا تنقصها عوامل النجاح، وهي مشروع أتمنى أن يواصله صاحبه بمزيد من الألق والإشعاع، وهي الرحلة الثانية الناجحة لروائي يجيد ترويض الكلمات لتصبح أكثر جمالاً وحضوراً، وهي كذلك التجربة التي لا بدّ أن نعترف بفنيّتها وحساسيتها المرهفة وقدرتها على الحياة.

الدكتورة هدى الصحناوي

أستاذة الأدب العربي

جامعة دمشق / دمشق: ٢٠٠٦/٥/٣

الفصل الأول

-١-

أين تريد أن تنزل يا سيد..؟

أنزلني هنا من فضلك.

هنا..؟ في هذا الجو العاصف... ألست ذاهباً معنا إلى دمشق..؟

نعم... لكنني مضطر أن أنزل هنا.

توقفت السيارة وقد صرّت عجلاتها على الثلج بينما كانت مسّاحة الزجاج الأمامية تحاول لاهثة إزالة الثلج المتراكم عن الواجهة.

فتح خالد باب السيارة ونزل، فاندفع على إثره تيار من الهواء البارد إلى الداخل مزيلاً بعض الغشاوة المتلبدة على الزجاج جرّاء تنفس الركاب الذين أخذوا يحتمون بياقات معاطفهم اتقاء البرد المتسلل من الخارج.

ـ من فضلك أنزل لي الحقيبة من الصندوق.

نزل السائق مسرعاً وقام بإزالة الثلج المتراكم عن قفل الصندوق بيده المرتجفة مخرجاً الحقيبة المحشورة بين حقائب الركاب وأعطاها لخالد سائلاً بشيء من القلق.

هل لك أحدٌ هنا..؟ على كلٍّ أتمنى لك التوفيق ثم مدّ يده مصافحاً.

شكراً لك.

حمل حقيبته ومضى في الطريق المثلج محدثاً هسيساً جراء تكسّر طبقات الثلج تحت قدميه بينما كانت السيارة تتابع طريقها الصاعد باتجاه الحدود السورية.

شعر براحة كبيرة لأنه قرر أن ينزل هنا رغم ما كان يعتريه من قلق نظراً لعدم وجود مكان يقيم فيه أو عمل معين يستطيع أن يباشره وقد أنهى بنزوله تردداً كان ينتابه حول صحة عودته إلى بلده بعد أيام قليلة من وجوده في لبنان، كان هطول الثلج غزيراً وإنما بشكل ناعم لا يحس إلى درجة أن بعض القطع تسقط على وجهه قرب فمه مباشرة فيتذوقها بلسانه محاولاً امتصاص رطوبتها الغضة.

سار وشعور الغبطة يملأ نفسه لمنظر الطبيعة الرائع وتلك البيوت الحجرية صفراء اللون ذات الأسطحة القرميدية والأبواب والنوافذ المطلية باللون الأحمر، وهذه المحال التجارية الأنيقة والسيارات المارة بهمة وجرأة غير عابئة بالجو البارد والثلج المتساقط.

فكر أن يسأل عن صديقه محسن الذي التقاه خلال الصيف الفائت في قريته وطلب منه أن يأتي إليه إذا ما فكر أن يسافر إلى لبنان.

أخذت تجول في رأسه تلك النقاشات التي دارت بينه وبين محسن وكانت مبعث نقاش حاد.. آه.. يا صديقي محسن.. عندما كنت تحدثني عن جمال الحياة هنا وتحثني على أن أذهب معك...؟ كنت أعارضك وأقول إن الحياة في بلدنا أيضاً جميلة...؟ قد ينقصنا بعض الأشياء إلا أنها تبقى جميلة.

وكنت يا صديقي ألحظ بريق الحلم في عينيك وأنت تحدثني عن الحياة هنا.. أرقب خيالك السارح وهو يجول مستعرضاً أنماط الحياة التي كنت تراها في بلاد أخرى وتتمنى أن نعيشها معاً. بالوقت الذي كنت أنا أكثر واقعية منك، كنت في أحاديثك تستسهل الأشياء وتبتعد عن الصعوبات، بينما كنت أنا أؤثر السير في الطريق العريض ولو اكتنفته الصعاب، كنت تحلم في البعيد، وأنا أحلم في القريب، كنت تحاول شراء الحلم، وكنت أحاول أن أصنعه، كنت تحاول أن تشتري بيتاً، وأحاول أنا أن أدعّم أساساته، فأيٌّ منّا كان هو الصحيح..؟

إننا يا صديقي نستطيع أن نبني بيتاً معاً، نؤسسه بواقعيتي ونزينه بخيالك، وسوف يكون بيتاً كما هو في رسوم مجلات الأطفال، بيتاً قرميدياً ذا نوافذ مشرعة على الهواء تحف به أشجار السرو والصنوبر التي زرعناها معاً أيام معسكرات الفتوة.

ها هو مطعم الفرسان.. وكما وصفه لي محسن من قبل، واجهة بللورية كبيرة مشرفة على الغرب حيث البحر والمطار قائم هناك.

مرحباً، هل السيد محسن هنا..؟

من يريده؟

صديقه.

يا سيد محسن، تعال، هنا شخص يريدك.

أقبل محسن ينظر إلى صديقه مرحباً من بعيد يبتسم ابتسامته المعهودة.

أهلاً.. أهلاً بصديقي خالد، وتعانق الصديقان وتبادلا القبل.

هيا تعال إلى هناك نجلس قرب الصندوق حيث يمكنني أن أحاسب الزبائن.

جلسا قرب الصندوق بحيث يتمكن محسن من القيام بعمله المزدحم وقت الظهيرة ويتبادل بعض الأحاديث المبتسرة مع صديقه.

كيف حالك..؟ متى وصلت..؟

منذ ساعة تقريباً، كيف حالك أنت..؟

بخير، وكيف رأيت المطعم..؟

يبدو أنه جيد، خاصة واجهته البحرية تشعر الإنسان أنه قريب من البحر والمطار الأمر الذي يجعل نفس المشاهد تمتلئ بإحساس المسافر.

لماذا لم تخبرني أنك ستأتي..؟

لم تكن فكرة السفر مدروسة بشكل جدي.

إن ظروف العمل في الجبال صعبة في الشتاء، وهذه المدينة مدينة اصطياف، الآن في هذا الجو الثلجي تكون فرص العمل قليلة.

سأحاول أن أتدبر الأمر في أي عمل خلال هذه الفترة.

على كلٍّ هناك مدرسة في سوق الغرب بحاجة إلى موظفين، تستطيع غداً أن تذهب إليها وتسأل إذا ما كانوا بحاجة إلى موظفين أم لا، والآن أخبرني.. هل ما زلت تختلف مع والدك..؟

أنا لا أختلف معه حول أية قضية سوى موقفي من أعضاء مجلس الإدارة في المؤسسة...! هو يريدني أن أنصاع لإرادتهم دون أية مناقشة أو حتى بيان رأيي في هذا الخصوص.

إنه محق يا خالد، وهو يفكر في مصلحتك، وأنت ترى أن الأمور جميعها تسير في هذا الاتجاه.. إن من مصلحتك أن تكون على علاقة جيدة مع أعضاء مجلس الإدارة، ثم لماذا تجعل الذين هم أقل منك مقدرة وثقافة يزايدون عليك.

هذا ما يزعج والدي وإنني أعذره في ذلك، لكنني لا أفهم الأمور على هذا النحو، ولا أقيس الأشياء من خلال مصلحة آنية أو انتهازية يراها البعض فرصة لتحقيق مكسب شخصي قد لا يدوم كثيراً، إنني أقيس الأشياء بمقياس أوسع وأشمل وأقول صادقاً.. إنني لا أحسد بعض ضعاف النفوس الذين يستغلون الفرص ويسارعون للاندساس وسط الزحام، وهؤلاء أصلاً هم من يسيئون للمؤسسة ويضعفونها بما يتمتعون به من سوء سلوك وقيم عرضة للتبدل مع تبدل الظروف.

أنا معك في ذلك يا صديقي.. هذا الحديث يطول والآن ينبغي أن نذهب إلى البيت كي ترتاح قليلاً ومن ثم نكمل الحديث.

* * *

كان الطريق إلى سوق الغرب مثلجاً متعرجاً والثلج ما ينفك يتساقط من السماء بشكل نتفٍ صغيرة تعيد ترميم ما فتحته السيارات من أخاديد سوداء على صفحة الثلج البيضاء، كانت السيارات تمر حذاء خالد بطيئة متهادية محاولة تفادي خطر الانزلاق أو الخروج عن الطريق الذي رسمته عجلات السيارات على أديم الأرض.

هل مدرسة سوق الغرب بعيدة عن هنا..؟

لا، إنها قريبة، هذا السهم يرشد إليها.

بدت المدرسة عن بعد ببنائها الواسع الضخم أشبه ما تكون بجامعة أو معهدٍ عالٍ تحف بها غابة من الصنوبر من جهتي الشمال والشرق بينما امتدت أمامها ساحة واسعة لاصطفاف السيارات.

اقترب من المدخل الرئيسي للمدرسة ذي الواجهة الزجاجية الواسعة، من وراء زجاج المدخل كانت امرأة تجلس وراء طاولة تراقب القادم الجديد سيراً على الأقدام في هذا الجو العاصف المثلج.

توقف أمام المدخل ونظر إلى المرأة عبر الزجاج منتظراً الإذن بالدخول.

كانت المرأة تلبس ثوباً قصيراً من اللون الأسود وفوقه كنزة صوفية حمراء بينما رفعت شعرها إلى الأعلى وشبكته بمشبك يظهر جمال عنقها واستدارة وجهها الأبيض. منظر الغرفة والمرأة القابعة فيها يبعث على الطمأنينة توحي للناظر أن تلك المرأة لم تتعرض لأي من عوامل الجو السائدة في الخارج من بردٍ وريحٍ ومطر وثلج وأنها بالتأكيد قدمت إلى العمل بالسيارة وهي تجلس في هذا المكتب تتمتع بمنظر الثلج المتساقط في فناء المدرسة بينما كان القادم الجديد يعلو الثلج كتفيه ورأسه، وها

هـو يقـف أمـام البـاب ينتظـر الإذن بالـدخول، لـيس مهمـاً أن يجـد فرصـة عمل، بل المهم الآن أن يدخل ويرتاح قليلاً ويتدفأ من القر الشديد الذي تعرض له خلال مسيره لمدة ساعة إلى المدرسة.

تفضل، قالت المرأة من الداخل.

شكراً لك.

سألته بلطف... ماذا تريد..؟

علمت أنكم بحاجة إلى موظفين، وأتيت أسأل إذا كنتم بحاجة أم لا.

نظرت إليه وقالت:

أهلاً وسهلاً.. تفضل وارتحْ من عناء الطريق.

جلس على المقعد بعد أن نفض الثلج عن كتفيه ورأسه وهو يشكر في نفسه للمرأة لطفها وحسن استقبالها له كونها لم تتصرف بفظاظة وتصرفه من عند الباب بقولها مثلاً:

آسفين.. لسنا بحاجة إلى موظفين..!

أمرت المرأة أحد المستخدمين أن يحضر فنجاناً من الشاي للقادم الجديد بينما تابعت هي تقليب بعض الأوراق الموضوعة أمامها على طاولة المكتب... ثم رفعت رأسها وسألته:

من أين حضرتك..؟ ثم أردفت قبل أن تتلقى إجابة.. من الشام..؟

نعم.

ماذا تعمل..؟

حالياً لا شيء، لقد قدمت منذ أيام قليلة فقط وربما أفكر في إعادة

الانتساب إلى إحدى الجامعات.

معنى ذلك أنك إنسان متعلم.

دخل فجأة رجل خمسيني إلى المكتب يبدو على سيماه الوقار والتهذيب ببذلته الأنيقة من الجوخ الإنكليزي ذات اللون الكحلي وربطة عنقه الحمراء.

مرحباً جمانة.. هل يوجد شيء؟

نعم أستاذ، هذا الشاب يبحث عن عملٍ، ويبدو أنه متعلم..

ثم أضافت موجهة حديثها إلى القادم الجديد.

حضرته مدير المدرسة.

نظر الرجل إليه وتأمله قليلاً وسأله:

ما اسمك..؟

خالد الساعدي.

أين تقيم..؟

لا يوجد مكان معين، وإنما لي صديق أستطيع أن أقيم عنده ريثما أتدبر أموري.

يمكنك أن تقيم عندنا في المدرسة، نحن بحاجة إليك أيضاً خارج أوقات الدوم.

كما تريد أستاذ.

كم تريد راتباً شهرياً؟

لا أستطيع أن أحدد، وهذا الأمر تقدرونه أنتم.

حسناً.. سنعطيك راتباً بمقدار الموظفين القدامى.. هيا يا جمانة، نادي أحد المستخدمين ليرشد الشاب إلى غرفته ويرتب أمور إقامته ويستطيع أن يباشر العمل من صباح الغد.

كانت الغرفة التي أرشد المستخدم خالد إليها تقبع في الطابق الأرضي من بناء المدرسة ينزل إليها من درج يتصل بمجاز يفضي إلى مطعم المدرسة وهي تشكل مجموعة غرف في الطابق الأرضي مخصصة لأعمال الخدمة ففي جوارها غرف بعض المستخدمين المقيمين في المدرسة وعلى الجانب الأيسر غرفة كبيرة مخصصة لغسل الملاءات وملابس الطلاب وأمام باب الغرفة تقبع الحمامات ذات المياه الساخنة بشكل دائم بينما يفضي باب الطابق الأرضي إلى الغابة المحيطة بالمدرسة تماماً. تطل نافذة الغرفة الزجاجية الواسعة على الغابة المحيطة بحيث أن رؤوس الأشجار تشرئب بعنقها متطاولة إلى حافة النافذة الرخامية وكأنها متطفل يرنو ببصره إلى داخل الغرفة. بينما وضع السرير تحت النافذة تماماً وبقربه طاولة صغيرة وكرسيان صفا إلى جانب الجدار وعلى اليمين وقفت خزانة من الخشب العتيق لحفظ الملابس وأدوات الحمام.

قاد المستخدم يحيى خالداً إلى أقسام المدرسة المختلفة حتى يتعرف على مكان عمله فصعد به إلى المطعم الذي سيكون القسم الخاص بعمله، كان المطعم واسعاً جداً، مفروشة أرضه بالطاولات المغطاة بالشراشف النظيفة وفوق كل واحدة مزهرية وأطباق طعام من الزجاج المزين، بينما كان في ركن من أركان قاعة الطعام يقبع بيانو أسود من النوع الجيد مخصص للحفلات التي تقيمها المدرسة في صالة المطعم في المناسبات أو في

الأعياد وعند انتهاء المدرسة، مما يعبّر عن ذوق وإحساس لدى القائمين على الإدارة ويطبع المدرسة بالطابع الأوروبي الراقي الذي ينهض بالإنسان إلى مصاف عاليةٍ من التهذيب وسعة المعرفة، أما المطبخ فهو يختلف عن المطابخ العادية التي يغلب عليها الاتساخ جراء الزيوت المتطايرة والدخان المنبعث من الموقد وسوء التهوية، فقد كان المطبخ عبارة عن قاعة كبيرة أيضاً ذات نوافذ وشرفات واسعة من جهة الشرق والشمال تطل على الغابة بينما نضدت طاولات رخامية على سائر جهات القاعة جانب الجدار ما عدا الجهة الغربية وذلك لتسهيل عملية تقطيع وحزم الخضار واللحوم والقيام بسائر أعمال الطبخ وكذلك استخدامها كمدىً واسع أثناء صنع الحلويات في أيام الأعياد. وفي الوسط، يقبع فرن حديدي هائل ذو عيون عديدة يتم وضع عدة قدور عليها في نفس الوقت. أما الأرضية فهي من الرخام الأبيض الذي تم المحافظة على نظافته بشكل دائم.

عاد إلى غرفته مع هبوط الظلام، أشعل المصباح كان الدفء يشع في الغرفة بينما كانت أغصان شجر الصنوبر تلامس برؤوسها زجاج النافذة فتحدث صوت خربشة وكأنها تطلب الإذن بالدخول، لبس ثياب النوم وأخرج من حقيبته رواية لآرنست همنغواي (وداعاً أيها السلاح) وجلس يفتح على الصفحة التي توقف بالقراءة عندها، كانت الريح في الخارج تصدر عويلاً يرتفع تارة وينخفض أخرى وكأنها عواء ذئب مخنوق، ذكرته الريح بأحد أصدقائه في دمشق الذي كان يخشى صوت الريح عندما تعوّل كما هي الآن، وكما هي الغيوم الراكضة في السماء تثير لدى صديقه نوعاً من القلق، كانت الريح المدومة في الخارج وهباتها النشطة التي تدفع بأغصان الشجر كي تضرب النافذة بعنف تثير في نفس خالد مشاعر حية وعواطف

تحيي الطبيعة بطقوسها الأزلية وتتوحد معها في مسيرة الحياة الناضحة بعناصرها المختلفة.

شعر بالامتنان للسيد مدير المدرسة وللمرأة التي استقبلته فردد بينه وبين نفسه.. شكراً لك أيها المدير، شكراً لك يا جمانة لأنكما هيأتما لي هذه الغرفة بجوها العابق بالطمأنينة كي أقرأ وأكتب بتأملٍ وتمعنٍ كبيرين.

* * *

كان العمل في المدرسة ممتعاً بما يثيره الطلاب من صخب وضجيج في لهجاتهم المختلفة التي يتحدثون بها، فهم يشكلون نوعاً من تجمع الدول العربية المصغر، وبالإضافة إلى أن الطلاب جميعهم من أبناء الدول العربية يشتركون بقاسم مشترك آخر هو أنهم جميعاً من أبناء الأسر الغنية لأن تكاليف إرسال الأبناء من إحدى الدول للتعلم والإقامة في هذه المدرسة النموذجية يكلف مبالغ طائلة لا يقدر عليها إلا كل صاحب ثروة أو سلطان، الأمر الذي يخلق تمايزاً حاداً بين ظروف الطلاب في المدارس العمومية وظروف الطلاب في تلك المدرسة، ويحدث أحياناً أن تكون وجبة العشاء مؤلفة من البطاطا المسلوقة والمهروسة مع شرحات من اللحم المقلي، ومع ذلك يقلب بعض الطلاب شفته السفلى بازدراء ويمضي دون أن يتناول وجبته.

تباً للتخمة... لا يعجب البعض وجبة عشاء مؤلفة من بطاطا مسلوقة ولحم مقلي، وبعضنا الآخر لا يجد ما يزدرد به بلعومه ولو كان وجبة بطاطا حاف...!

كانت هذه التموجات في صور الحياة المختلفة، بين ما هو مخزون في ذاكرة خالد الطفولية وبين تلك الصور الملتقطة الآن تثير نقاشاً وجدالاً في أفكاره ومشاعره بعد أن رقد على السرير التماساً للنوم... ما معنى شعارات الوحدة التي تطرحها غالبية الدول العربية إذا لم تكن جميعها، وهي في السر تعمل على بقاء عوامل التجزئة والتفرقة قائمة، بل أن تلك الأنظمة قد زادت عوامل التفرقة رسوخاً عما كانت عليه في عهود الاستعمار الكولينيالي..! والأمر المحزن إلى درجة البكاء، أن تلك الأنظمة تخوض الحروب للدفاع عن كياناتها، وأنظمتها تحت شعارات الوحدة، ويتصاعد التطبيل والتزمير من إذاعاتهم ومحطات تلفازهم للوحدة والعروبة، ويتبارى ضيوف محطات التلفاز في بيان الاجتهادات الفكرية التي تثبت أن العرب أمة واحدة ومصير كل واحد منهم يؤثر على مصير الآخر..!

ومع ذلك يبقى الجائع من العرب جائعاً ويبقى المتخم منهم متخماً وتبقى تصاريح الدخول بين الدول العربية قائمة وتزيد إمكانية الحصول عليها صعوبة، وتبقى أنظمة حراسة الحدود، وعدد الجنود الذين يفتشون المسافرين أكثر من ذي قبل..! وينهض تساؤل:

لماذا يسعى هذا الحاكم أو ذاك إلى موضوع الوحدة..؟

ويجيب المنطق:

لا حاجة للحاكم إلى أن يهتم بمئات ملايين البشر، ويكفيه عدة ملايين أو بضعة مئات من الألوف، ثم إنه في دويلته الصغيرة أكثر حرية وأرفع مكانة من أن يكون نكرة في دولة كبيرة، وتبقى ثروته مصانة ولا يضطر إلى اقتسامها مع هذا الكم الغفير من الناس.

ومن خلال نقاش الأفكار تلك وتتالي الصور في المخيلة مثل ومضات كميرات التصوير في المؤتمرات الصحفية برزت صورة آمال زميلة خالد في المؤسسة عندما كان يؤكد فكرته لها بعد نقاش طويل:

ألم أقل لك يا صديقتي إن التمسك بالسلطة في بلادنا العربية يتفرع حتى يشمل الوظائف العامة.. فهي تعتبر نوعاً من السلطة، لا تكتسب بالكفاءة أو الاستحقاق وإنما بأساليب أخرى أنت تعرفينها، كنت تلومينني لأنني أفكر أن أتخلص من الوظيفة ولا أفعل كما يفعل ذلك المدير الذي قال للوزير ذات يوم:

أنا أركع لك.. لك يا سيدي...؟

وعندما لمته أنا على هذا القول أجاب بإصرار:

نعم.. هو ولي نعمتي أركع له...

فهل ترين يا عزيزتي أنني أستطيع أن أكون مثل ذلك المدير..؟

دومّت الريح في الخارج وضربت النافذة بعنف، بينما كانت أصوات عمال المصبغة تخفت تدريجياً إيذاناً بأن وقت النوم قد أزف وأن الجميع قد رقدوا ما عدا يحيى الذي كان صوت تثاؤبه وانطراحه على السرير الذي أنَّ تحته لثقل وزنه وقدم نوابضه المعدنية التي تحتاج إلى تزييت يشعر أن هناك من لم ينم بعد.

* * *

من الأوقات الممتعة في المدرسة التي يقضيها خالد، تلك الساعات بعد الظهر، عندما يسعفه الوقت وقلة المشاغل أن يصعد إلى تلك الهضبة

الكائنة على مبعدة من المدرسة بأقل من كيلومتر واحد باتجاه الغرب حيث يجلس بين أشجار الصنوبر والشربين متأملاً البحر والغابة الخضراء التي تتدرج نزولاً إلى أن تتلاشى قرب الساحل، وتعبق في الأنف رائحة الصمغ العالق على جذع الأشجار والأريج المنشور من أوراق وكيزان الصنوبر المتساقطة تجعله لا يحس برطوبة الأرض الجالس فوقها أو يشعر ببرودة التربة المتسربة إلى قدميه.

* * *

بعد أيام من وجوده في المدرسة وبينما كان يقوم بفرش أغطية الطاولات وترتيب المقاعد، دخلت السيدة جمانة إلى قاعة الطعام.

صباح الخير سيد خالد.

أهلاً ست جمانة.

كيف حالك..؟ هل إقامتك مريحة..؟

بخير.. الحمد لله.

هل تشعر بالملل بعد الظهر.

لا .. عندي ما أستطيع أن أشغل وقتي به.

مثل ماذا..؟

الكتابة أو القراءة وأخرج للنزهة أحياناً.

شيء رائع هذه الصفة بالإنسان.. ثم تابعت أين تكتب وتقرأ.. في الغرفة..؟

نعم... أو على تلك الهضبة عندما أذهب إليها للتنزه.

الهضبة تلك..؟ تنظر إلى الهضبة بتعجب. وتضيف.. ماذا وجدت بها..؟

إنها جميلة وفاتنة، لا أحس بالوقت وأنا عندها.

يبدو أنك شاعر.. لقد شوقتني أن أرى تلك الهضبة، هل تصدق.. إنني أمر قربها يومياً وأنا آتية أو ذاهبة إلى العمل ولم أفكر أن فيها هذا الجمال الذي تتحدث عنه.

إذا كان ذلك يروق لك فإني على استعداد لأن أصعد أنا وإياك إلى تلك الهضبة حيث تشرفين على المناظر الطبيعية التي تتهيأ لك هناك.

فليكن ذلك.. قالت ذلك بغنج، ثم تابعت.. عندما يكون لديك وقت فراغ تعال إليّ في المكتب نتجاذب أطراف الحديث، يبدو أنه يوجد لديك شيء أسمعه.

ذهب خالد لتفقد صالة الطعام من حيث استعدادها لاستقبال الطلاب. كان كل شيء نظيفاً مرتباً عندما دخلت السيدة ميراي مع الشيف سليم، كانا منهمكين في حديث دائر بينهما منذ بعض الوقت.

ميراي بقامتها الفارعة وشعر رأسها الذي جمعته بشكل برج ذهبي فوق رأسها، وفستانها الزهري الذي عنيت به بشكل يبدو وكأنه نزّل على جسمها تنزيلاً يظهر جمال الحوض والبطن. أما سليم فكان لا يقل عنها أناقة بالنسبة لرجل بقامته المشدودة وأوصاله المتينة بشكل محكم. كان يحدث السيدة ميراي بلغة سلسلة سهلة عن شؤون المطبخ والمطعم.

أنت ترين يا مدام أن النظافة لدينا هي أهم شيء نحرص عليه.

بينما كانت السيدة ميراي تخاطبه بلغة التودد الزائد.

حبيبي سليم... ! أنا مبسوطة منك كثيراً وأنا أثق بك.

اقتربا من خالد الذي بادر إلى تصحيح وقفته بحيث يكون في مواجهتهما بدلاً من أن يعطيهما جانبه وقبل أن يبادر بالتحية بادرت السيدة ميراي.

صباح الخير خالد.

صباح الخير مدام.

كيفك؟

كويس.

أنت مبسوط.

نعم يا مدام، وأنا أشكرك.

ثم تابعت طريقها حذاء خالد هي وسليم متابعين مناقشة الأمور الخاصة بالمدرسة.

ما أليقهما من ثنائي رجل وامرأة، وما ألطفها من سيدة بمعنى الكلمة وخاصة لطفها الزائد وبساطتها في التعامل مع مرؤوسيها.

كان خالد يتأملهما وهما يسيران ويتحدثان عندما سمع صوت جمانة.

يا سيد خالد، تفضل، يوجد شخص يريدك.

التفت خلفه فوجد صديقه محسن فاتحاً يديه وهو يضحك موجهاً حديثه إلى السيدة جمانة التي كانت تقف قربه وقد أتت معه لكي ترشده إلى مكان خالد.

من اليوم الذي اشتغل فيه هنا لم أعد أراه..؟ هل تصدقين ذلك..؟

أهلاً.. أهلاً محسن.. متى وصلت..؟

عملت كما يقول المثل (الذي لا يأتي إليك تعال أنت إليه).

هيا.. تعال نذهب إلى الغرفة نتحدث.

إذا أردتما أن تجلسا في مكتبي تتحدثان أستطيع أن أخلي لكما المكان.

شكراً سيدة جمانة سنذهب إلى غرفتي.

مضى الصديقان إلى غرفة خالد وهما يتأبطان ذراعي بعضهما البعض وقد أشار محسن بشيء من المداعبة إلى جمانة.

ماذا أرى..؟ هل الجو الموجود هنا منعك أن تأتي إليّ..؟

لا يا محسن، طوّل بالك عليّ يا رجل، أنا ما زلت جديداً هنا وعلى العلاقات الغرامية.

وفي هذه الأثناء وصلا إلى المطبخ فسأل صديقه ماذا يريد أن يأكل.

أي شيء.

اليوم الغداء فريكة مع الدجاج والسمن العربي.

يا سلام، هذا الطعام منذ مدة لم آكله.. ألا يوجد مشروب هنا..؟ أو دكان قريب يبيع المشروبات.

لا، أنظمة المدرسة تمنع من إدخال المشروبات الكحولية.

ليس مشكلة، لكن جو غرفتك يرغب في أن يشرب الإنسان ولو قدحاً صغيراً.

أنا لا أحب أن أخالف الأنظمة، في وقت آخر يمكننا أن نذهب إلى بيروت أو إحدى الحانات في سوق الغرب ونشرب هناك.

يا سلام... ! أنت يا خالد تستطيع أن تخلق جواً في أي مكان تحل فيه يشجع على القراءة والكتابة، الكتب منضدة فوق الطاولة، الأوراق والقلم كلها أدوات تدفعك لأن تمسك بها وأن تقول شيئاً... إنك باختصار يا صديقي مشروع كاتب.

ليس لهذه الدرجة، كل ما هناك، إنني أحاول أن أزجي وقتي في شيء مفيد وأن أقول بعضاً مما أفكر فيه.

هذا يعتمد على نوع الأفكار التي تود أن تقولها.. هل هي نفس الأفكار التي كنت تقولها وأنت في وظيفتك وأدت بك إلى ما أدت إليه..؟ أم لديك أفكار تحمل قيماً جديدة..؟

ينبغي أن نميز بين نوعين من القيم.. القيم الثابتة وهذه التي تتضمن مجموعة قيم كالحق والخير والجمال والعدل وهذه تبقى معي أينما حللت سواء كنت هناك أو هنا وقيماً تتضمن معالجة لقضايا آنية وملحة.. وهذه يمكن لها أن تتغير تبعاً للظروف ومقدار الربح والخسارة. وهذا هو هامش المناورة الذي أجيز لنفسي أو لغيري أن يتحرك به.. أما البعض الذين يجيزون لأنفسهم إسقاط قيمة أو أكثر من النوع الثابت وإدخالها في صف القيم المتغيرة فهؤلاء لا تستطيع أن تتحكم أو تتكهن في أفكارهم أو مجموعة ممارساتهم حتى في مجال الرياضيات هناك قيمة ثابتة وقيمة متحولة. وبعض الأشخاص لا يؤمنون بهذا القانون الرياضي.. وهنا تكمن خطورتهم، فما هو حق اليوم يصبح باطلاً غداً بالنسبة لهم، وما هو عدلٌ يصبح بعد مدة ظلماً وهؤلاء رماديون من حيث الألوان يشبهون القطط.. بالمناسبة، هل تعلم أن القطط لا ترى إلا الألوان

الرمادية..؟ أما بالنسبة لي فإني أرى أن الأمر الحسن يبقى حسناً ولا تستطيع أن تعطيه قيمة أخرى.

كان يمكن أن تكون أقل انتقاداً، أو أن تلبّس آراءك ببعض الأقمشة الحريرية.

وهل تعتقد أن كل إنسان ينبغي عليه أن يلبس أفكاره وأقواله بأقمشة حريرية..؟ إذا فعلنا ذلك فمن يشير إلى الخطأ.. هل نستطيع أن نكذب جميعنا على بعضنا البعض..؟ في هذه الحالة فإننا نمارس الكذب الجماعي ألا ترى أن هذا يخالف السنن الطبيعية والفطرة التي فطر الإنسان عليها.. ألا ترى يا صديقي أن الطفل الصغير لا يستطيع أن يعبر عن أفكاره التي تراوده إذا ما كانت لديه أفكار ولا يجيد آلية التعبير عن مشاعره ولكنه يأبى أن يمارس الكبار عليه الكذب لأن الفطرة السليمة تأبى ذلك... وإذا لم يرق الكلام الصحيح للبعض، معنى ذلك أن من لم يرقه ذلك على درجة من الانحراف.. وعلى هذا فإن من لا يعجبهم كلامه يضعونه في خانة غير المرغوب فيهم.. وبالنسبة لي أنا لم أفتعل الخلاف مع رئيس وأعضاء مجلس الإدارة..

أجبني صراحة.. هل أنت مع مجلس الإدارة؟

أراك تسأل بطريقة المحققين.. هل أنت مع أو ضد..؟ إن السؤال بهذا الشكل يحوي قدراً من الإهانة وانعدام الديمقراطية. ولعلمك أنا لست ضد مجلس الإدارة كنظام لإدارة المؤسسة ولكنني لا أقبل ما يفعله مجلس الإدارة الحالي بتصرفاته وعدم احترامه لآراء الآخرين. إن السؤال عينه الذي سألتني إياه قد سألني إياه رئيس مجلس الإدارة السيد حسن

أفندي، وعندما لم تعجبه إجابتي أشاح بوجهه عني وتابع حديثه مع زميل آخر لي وكأن وجودي لم يعد له ضرورة، ولم يسألني حتى لماذا لا أوافق على سياساته وتصاعدت خلافاتنا عندما لم أوافق أن أقبل بعرض السعر في المناقصة الخاص بأحد أقربائه فهو يريدني أن أكيف القانون وفقاً لرغباته لا أن أطبق القانون كما هو... فنحن في النهاية لسنا قطيعاً، ولا نستطيع أن نسكت عن الخطأ.. ألم يأمر الحديث الشريف من رأى منكم منكراً فليغيره بيده وإن لم يستطع فبلسانه وإن لم يستطع فبقلبه وهو أضعف الإيمان. وأنا لم أحاول أن أعالج الخطأ بيدي بل بلساني وهذا لم يعجبهم..؟ إننا يا صديقي لا نستطيع أن نكون كماً مهملاً نستدعى بالوقت الذي يريده الآخرون..! لماذا لا نستطيع أن نشير إلى الخطأ، وإلى الذين يرتكبونه بحسن نية أو بسوئها..؟ والأمر الخطير في عالمنا العربي أن أولئك المفسدين الذين ينبغي أن يشار إليهم بإصبع الاتهام هم من يقررون مدى السماح بالإشارة إلى الخطأ وهم الذين يقررون هامش المساءلة مع هذا المسؤول أو ذاك، ليس بنسبة الخطأ أو الجرم الحاصل، بل بنسبة قرب أو بعد هذا السؤال عن مركز القرار....!

هل باعتقادك أن هؤلاء البيروقراطيين يسمحون لك أو لغيرك أن تشير إليهم بإصبع الاتهام..؟ إنهم يا صديقي يستطيعون أن يلفقوا لك ألف تهمة ويلصقون بك مختلف النعوت التي أوجدها القاموس السياسي والجنائي من صفات... لا يوجد ما يمنع ذلك، أنت لا تجيد قراءة المرحلة، ولا فهم أساليب اللعبة، أنت من طينة أبي الطيب المتنبي بعزة نفسه، وأبي فراس الحمداني بفروسيته وتضحيته... لكن انظر ماذا استفاد هذان الأحمقان.. الأول بقي يطلب المجد ممن لا يملكه، يمدح هذا ويهجو ذاك

حتى قتل أسير بيت من الشعر قاله في وقت من الأوقات:

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

والثاني قد سلب عرشه من أقرب الناس إليه وقد سعى به الوشاة عند ابن عمه حتى كاد أن يكون طريداً في مملكة هو أحق الناس في حكمها، ولم تشفع فروسيته ولا سنوات سجنه لدى الروم أو تضحياته في سبيل الوطن والسلطان.

هذا كلام تيئيسي رغم أنه صحيح من الناحية الواقعية، ولكنني لا أستطيع أن أتخذ منه دليلاً عملياً في سلوكي لأن هذا يهدم ما بنيناه ونؤمن به من قيم تدعو إلى عدم الاستكانة ولزوم قول الرأي بغض النظر إذا قتل أبو الطيب أم لا.

تبسم محسن وقال لصديقه وهو ينظر إلى ساعته:

ها.. إن الوقت قد تأخر سأنصرف الآن.

وهمّ بلبس الجاكيت الذي كان قد خلعه لدى دخول الغرفة.. وأضاف..

إن الحديث ذو شجون نكمله فيما بعد.

= ٢ =

كان صوت جمانة ينبعث من الردهة المؤدية إلى غرفة الإدارة حازماً حاداً..

قلت لك لا أستطيع أن آتي إلى المدرسة بعد الظهر.

لماذا..؟ نحن بحاجة إليك في المدرسة بعد الظهر ومن الضروري إنجاز الجداول قريباً.

سآخذ الجداول إلى البيت وأنجزها هناك.

لماذا لا تأتين.. يمكنني أنا أن أعيدك بسيارتي..

كان صوت المدير خفيضاً وهو يتحدث مع جمانة عندما ظهر خالد في الباب..

سيد خالد.. تفضل. قالت جمانة..

عذراً.. لا أريد أن أقاطعكما..

لا.. لا.. مجرد حديث عادي عن الشغل قال المدير ذلك وأضاف أستأذنكما ثم غادر الغرفة مفسحاً المجال لخالد الساعدي كي يتأمل وجه جمانة الذي علته الحمرة والانفعال وانتبه لحركة يدها العصبية وهي تعبث بأوراق وضعت على الطاولة.

سيدة جمانة.. هل أستطيع تقديم شيء.

لا شكراً.. تفضل اجلس..

أراك منزعجة قليلاً... هل يوجد ما يكدّر..؟

لا.. وإنما السيد المدير يريد مني أن آتي إلى المدرسة بعد ا لظهر لإنجاز هذه الجداول، وأنا لا أستطيع ذلك.

هذه مسألة بسيطة حسبت أنه يوجد شيء هام أكثر لا سمح الله..

انس الأمر.. غداً الأحد، أين تريد أن تقضي يوم عطلتك.

- سأذهب إلى صديقي محسن، لقد تواعدنا أن ننزل إلى بيروت.

ـ هل تعرف بيروت..؟

ـ ليس تماماً.

ـ ماذا تحب أن ترى فيها..؟

ـ أحب أن أرى البحر، وصخرة الروشة وشارع الزيتونة ومكتباتها.

على رسلك.. ما أبقيت منها ؟ قالت ذلك وهي تضحك.

ـ هي كالمرأة يحبها الإنسان بالكامل، لا يستطيع أن يحب بعضاً منها ولا يحب الآخر..!

ـ هذا كلام خطير.. بيروت مدينة محظوظة إذ نزار قباني أيضاً غمرها بهذا الحب وغيره وغيره قال عنها شعراً.

ـ هي تستحق كل ذلك، وصدرها يتسع للجميع، وهم يعبرون عن حبهم لها كل على طريقته.

ـ أتمنى أن ترى بيروت جيداً وغمزت من طرف عينها. لكنك لا تنسى أنك قد وعدتني أن تريني تلك الهضبة التي شوقتني أن أصعد لأراها.

ـ كما تشائين، في أي وقت تريدين.. والآن عن إذنك سأذهب أتفقد بعض الأقسام.



جلس خالد الساعدي وصديقه محسن على طاولة في مقهى يطل على البحر في شارع الزيتونة بعد تجوال طويل في شارع الحمراء وساحة الشهداء حيث راقب محتويات الساحة، من سينما الرفولي إلى نصب الشهداء الذين تساءل جمال باشا السفاح لحظة إعدامهم عندما سمع أحد

الواقفين يرقبون الإعدام وهو يتلو سورة الفاتحة ويترحم عليهم.

إلى أين تذهب روح هؤلاء الشهداء..؟

وكان جواب الشخص المسؤول الذي هو أحد أبناء بيروت دبلوماسياً بحيث يهرب من غضب السفاح.

(إذا كان إنساناً خيّراً، فإلى الجنة، أما إذا كان إنساناً شريرا، فإلى النار..!).

كانت الساحة تحتوي صوراً متعددة من صور المدينة الحية، بيروت تتميز عن غيرها من المدن المتوسطية، قلبها شرقي، دافئ وحنون، وعقلها غربي، بارد ويدعو إلى التفكير، هي ملتقى هذين الجناحين، جناح اليمين وجناح اليسار، جناح الشرق وجناح الغرب، جناح مسيحي وجناح مسلم، مدينة تعيش على التوازن، هذا التوازن الذي يؤمن لها زخماً حياتياً وتنوعاً بشرياً وفكرياً قلما تجد نظيره في مدن المتوسط، أشخاص متأنقون يتسوقون حاجاتهم، أشخاص من بسطاء الناس يتجولون بحثاً عن فرصة عمل، نساء برفقة أزواجهنَّ يتجهنَّ إلى المحال الذائعة الصيت للشراء أو للنزهة، سائقو تاكسي يقفون جانب سياراتهم ينادون على الركاب كل حسب وجهته، .. في ركن معين تقف امرأة تلفت النظر بوقفتها ونظراتها إلى الرجال المارين بها.. زينتها فاضحة، ولباسها قصير، ما تكاد تلتقي نظراتك في نظراتها حتى تبادرك بإيماءة من عينيها قبل أن تفكر أنت في أن ترسل أية إشارة إليها.

ما هذه..؟

كما ترى.. إنها تنتظر زبوناً، ثم يضيف محسن ضاحكاً إذا كنت ترغب تقدم إليها وكلمها.

يتابعان سيرهما مجتازين المرأة وخالد يعلق على كلام صديقه.

حلاوة الحب يا صديقي تكمن في قطافه غضاً، طازجاً، ليس كالحب المصنوع مسبقاً، الجاهز سلفاً، الحب، تضمه إلى صدرك، تتوحد معه جسداً وروحاً كشجرة اللبلاب تعانقه، تلتف حوله، هو صنع يدك.

لا تفلسف الحب يا أخي، كل امرأة لها طعمها الخاص، المرأة التي تتحدث عنها هي الحبيبة، التي تتعب للحصول عليها، أما هذه... فهي لا تريد منك أن تتعب لأجلها، وهي لا تريد أن تتعب لأجلك، هي امرأة عملية تعرض جسدها ومستعدة لتلبية حاجتك، يمكنك أن تقضي معها وقتاً ثم يذهب كل منكما في سبيله... إنها لا تضيع وقتها.

ـ بالمناسبة.. في بلاد المغرب العربي يشربون الشاي ثقيلاً جداً ولهم طقوس في صناعة الشاي تستغرق وقتاً طويلاً بحيث يخرج الشاي أشبه بمادة دبس العنب سميكاً، مدغاً، له طعم يعلق في اللسان والشفاه إلى فترة طويلة.. هذا النوع من الشاي يصنعونه للضيوف وفي حالات وجود متسع من الوقت وهو تعبير عن غاية الترحيب والتكريم. وهناك نوع من الشاي كالذي نشربه في بلادنا إلا أنه أثقل قليلاً لا يقارن مع النوع الأول.. يصنعون هذا الشاي على وجه السرعة، خاصة عندما يكونون في وقت يمارسون به عملاً ما أو يكونون في عجلة من أمرهم.. يسمون هذا النوع.. شاي عمّال..!

إنهم مصيبون في تسميتهم، ذلك شاي للرفه وللمتعة وهذا شاي للسرعة والعمل.

وحديثنا عن نوعي الحب يشبه هذين النوعين من الشاي، المرأة التي أتحدث عنها أنا هي الشاي الثقيل الذي يعلق طعمه في اللسان وسماء الحلق... أما هذه المرأة التي مررنا قربها منذ قليل فهي كشاي العمّال تشربه على وجه السرعة دون أن يعلق طعمه في لسانك أو سماء حلقك... قال خالد ذلك ومضى ساهماً بعينيه يرقب موج البحر.

ضربت موجة عالية أعمدة المقهى المغروسة في الماء وسقط بعض رذاذها على طاولة الصديقين أيقظت خالد من شروده الذي بادره محسن بالسؤال:

أراك قد سرحت.. بماذا تفكر..؟

أفكر في هذا الموج الذي يغسل صخور ورمال شاطئ لبنان، بيروت خاصة أشبه في هذا الموج، بغسل شاطئنا نحن العرب، يغسل همومنا، رغم كونه صغيراً. إلا أننا في دنيا العروبة.. ترانا نلقي عصا الترحال عنده بعد أن نكون قد تعبنا في بلداننا وأنظمتنا، فليس عبثاً أن بيروت يصدر بها سنوياً من الصحف والمجلات أكثر من مجموع ما يصدر في غالبية الدول العربية...!

ـ لكنها فوضى عارمة.. حتى الدول الأوروبية العريقة في الديمقراطية لا تجد مثل هذه الحرية الفوضوية الموجودة هنا في لبنان.

ـ ألا تعتقد أن لبنان الصغير بحجمه، الكبير بحريته يخيف الأعداء أكثر من بعض الدول العربية الكبيرة بحجمها وعدد جيوشها إلا أنها

فقيرة بحريتها، فقيرة في صحفها ومجلاتها ومجالسها التمثيلية... إنني أعتقد أن هذه الحرية هي سلاح ماضٍ لشد ما يخشاه أعداء العرب، خشيتهم من القنابل والرصاص.

الدبابة والطائرة، والبندقية يمكن أن تسيطر عليها ويستطيع الحاكم أن يستخدمها بالاتجاه الآخر. أما الكلمة فلا أحد يستطيع أن يسيطر عليها، فهي تخترق أشد الحصون وتصيب هدفها. فكما قال أحد الفلاسفة إن الأفكار لها أشكال وأحجام..!

ـ هيا أكمل زجاجة البيرة التي أمامك.. فكما قال أحد الظرفاء عندما دخل إلى مطعم اسمه مطعم لبنان الكبير وكان نصيبه قطعة لحم صغيرة في وجبته، قال للجرسون مازحاً:

من فضلك صغّر لبنان شوي وكبّر قطعة اللحم...

وأنت يا صديقي قلل من الفلسفة ودعنا نكثر من المرح والمداعبة..

ماذا تقصد..؟

نريد أن نذهب ونقضي سهرتنا في أحد المرابع الليلية حتى تتعرف أكثر على المدينة، ويمكنك أن تشاهد لبنان وتحظى بقطعة لحم كبيرة..!

كانت الراقصة في المربع الليلي ترقص مؤدية حركات خلاعية بردفيها وصدرها وتطلق ضحكات يغلب عليها المجون وهي تغمز لبعض الرواد وتخص محسن وصديقه خالد بحصة من تلك الغمزات الألعوبية التي تستجلب عبارات الاستحسان وتأوهات الشوق وتستمطر سحائب من الأوراق المالية التي يبادر بعض الزبائن إلى رشها فوق رأس الراقصة

الحسناء فتسقط متهاوية فوق رأسها وجسمها إلى الأرض، بل والبعض يصر على أن يثبت قطعاً نقدية فوق الصدر أو في حزام الرقص حول الخصر. كان هذا التصرف يثير حماس الساهرين ويرفع من حرارة المنافسة بين البعض الذين اعتادوا أن يسهروا في هذا المربع وتربطهم علاقة بالراقصة ومعرفة جيدة بها.

أما خالد الساعدي، رغم إعجابه بجمال جسم الراقصة وغنجها الذي مارسته على المسرح إلا أن مسألة رش النقود فوق رأس الراقصة وعلى صدرها وجسمها وسقوط البعض تحت قدميها أثار في نفسه الاستياء لهذا التقليد السيء الذي لا يقيم وزناً للنقود التي هي بالنهاية قيم مادية واجتماعية يوجد من هو بأمس الحاجة إليها في قرانا وريفنا ومدننا المنسية. لا أن تسقط تحت أقدام راقصة نثرها عليها صاحب بئر نفط أو تاجر محتكر أو موظف مختلس.. قال ذلك لصديقه عندما سأله:

ألست سعيداً... ما رأيك بها..؟

إنها جيدة.. ولكن..!

دعك يا أخي من الأفكار المثالية ودعنا نتمتع في هذه السهرة.. المرأة هي بهجة الحياة، وحيث لا يوجد نساء لا توجد بهجة.. الآن أعرفك عليها بشكل أفضل.. ورفع الكأس.

كأسك..

كأسك.. وتناول حبة من الفستق حركت لعاب فمه بطعمها المالح.

مساء الخير..

أهلاً أهلاً..

نهض محسن مفسحاً المجال للراقصة التي بدلت ملابسها وأتت كي تجلس مع محسن وصديقه..

وقف خالد ومد يده مصافحاً..

أهلاً مدام..؟ وقبل أن يتم قالت..

ليلى..!

أهلاً مدام ليلى..

أعرفك.. صديقي خالد الساعدي لقد حدثتك عنه المرة الماضية..

تشرفنا.. ثم ركزت النظر في عيني خالد.

يبدو أن صديقك أول مرة يدخل إلى هكذا مربع...

قالت ذلك لمحسن..

ـ نعم، رأيك صحيح... لكن كيف عرفت..؟

ـ إن لي خبرة بالرجال، وهو ليس من النوعية التي ترتاد مثل هذه الأماكن..

ـ إنه مثقف ويحب النساء على طريقته..

يعجبني الرجل هكذا.. وأنا أيضاً أحب الرجل على طريقتي..

أحس خالد بالحرج لهذا الغزل الصريح، يفترض بها أن تكون صديقة صديقه.

ـ هل هي من نوع الشاي الثقيل الذي حدثتني عنه في بلاد المغرب العربي... أم من نوع شاي العمّال..؟ قال محسن بشيء من المداعبة.

ـ لماذا هذا السؤال المحرج ؟

ـ انتبهت ليلى للحديث الدائر ولم تفهم شيئاً.

عن ماذا تتحدثان... من هي التي تشبه الشاي الثقيل ومن هي التي تشبه النوع الآخر من الشاي.. لست أعرف ما أسميته..؟

ضحك محسن وقال موضحاً للراقصة:

إن صديقي يقسم النساء إلى نوعين:

النوع الأول المرأة التي نحب ونتعب من أجلها وتتعب هي من أجلنا وهذا النوع يشبه نوع من الشاي الثقيل الذي يشرب في بلاد المغرب العربي ويتطلب جهداً ووقتاً في صنعه.

والنوع الثاني من النساء الذي نحصل عليها بسهولة ولا نتعب في الوصول إليها.. وهذا النوع يشبه نوعاً من الشاي يُعمل على وجه السرعة ويشربه عادة العمال الذين يزاولون أعمالاً.

وعندما أنهى محسن توضيحه قالت ليلى موجهة حديثها إلى خالد:

ـ أحب أن أخبرك أنني من نوع الشاي الثقيل... والثقيل جداً، الذي ينبغي على الشخص الذي يريد أن يشرب مني أن يتعب ويصبر كثيراً حتى يتذوق الشاي الذي هو من ماركة ليلى.. وما تراه من مظاهر الجسد هو طعم يجذب الشاربين ويتعذبون للوصول إليه وإذا لم أكن كذلك لحصل الرجال على كل ما عندي بسرعة وسهولة وأفقد بذلك متعة جذب الآخرين إليّ.

هل هذا ينطبق عليّ.. ؟ قال محسن.

أنت تجاوزت هذه المرحلة ولقد تعبت وشقيت... بما فيه الكفاية.. أليسَ كذلك؟

لقد استمتعت بالحديث معك مدام ليلى كما استمتعت برقصك هذه الليلة.. شكراً لك.

وأنت صديق ظريف سررت بالتعرف إليك.. أرجو أن نراك مرة أخرى.

- ٣ -

كان اجتماع مجلس إدارة المؤسسة برئاسة حسن أفندي يهدف إلى تعزيز قبضته على أمور المؤسسة وإحكام حبك الوسائل الهادفة إلى إقصاء غير المرغوب فيهم حيث أعلن رئيس المجلس:

لا بد من إصدار قرار يتضمن إحالة خالد الساعدي ورفاقه المتورطين بالتزوير وسرقة المواد إلى القضاء، وأن يتم كذلك إصدار قرار يتضمن حجز الأموال المنقولة وغير المنقولة لهم حرصاً على أموال المؤسسة من الضياع.

كذلك ينبغي إبعاد العناصر المشتبه بها والتي لا نضمن ولاءها لنا عن المواقع الحساسة في المؤسسة، وأن يتم وضع معايير أكثر دقة في اختيار العناصر وذلك بالتقصي الشديد عن الأشخاص وحياتهم وأصدقائهم قبل أن نسند إليهم أية مهام. أعلن ذلك المدير المالي بحزم وبدقة.

ـ لكن ذلك قد يحرم المؤسسة من العديد من أصحاب الكفاءات والأشخاص الذين قد يفيدون المؤسسة بخبرتهم وعلمهم...! قال ذلك مدير الشؤون العلمية مبدياً وجهة نظره.

ـ الولاء أولاً، ومن ثم الكفاءة... ماذا تعني كفاءة إنسان إذا لم نضمن ولاءه..؟ على العكس إنسان صاحب كفاءة لكنه منقوص الولاء يضرنا أكثر مما يفيدنا..! لأنه متعلم وفهيم، لا نستطيع أن نعامله معاملة السوقة وتجد نفسك مضطراً لأن تجامله واستخدام أسلوب اللباقة والتهذيب في التعامل معه. وتجد أن طلباته أكثر من عطائه.. على عكس الأشخاص غير المتعلمين فإن ولاءهم مضمون وتستطيع أن تسند لهم الأعمال التي تريد دون مناقشة وهذا يسهل العمل ويجعله يسير بوتيرة عالية.

ـ إن هذا التحليل يجعل من عمالنا آلات ميكانيكية في العمل بدل أن يكونوا بشراً يفكرون، ولهم شخصيتهم المستقلة.

انظر إلى كوريا وبعض الدول التي تشبهها، العبرة في النتائج وليس في الأسلوب المتبع.. الفرد لا يهم..! إن كوريا استطاعت أن تبني المفاعلات الذرية، فهل مهماً أن تعرف من بنى تلك المفاعلات..؟ إن ذلك قد تم بفعل ذوبان الشخصية الفردية بالمجموع.

ـ لكن هذا الذوبان يهدر كرامة الإنسان ويمسح الخصائص الفردية للشخص، ويجعل من الجميع نسخاً متشابهة مع بعضها البعض، يقرؤون صحيفة واحدة، يفكرون بنفس الأسلوب، ويدينون بالولاء لنظام واحد، إن هذا يفقد المجتمع البشري خاصية التنوع ويقضي على فكرة التعدد والتلون التي خصه الله بها.. ألم يقل نبينا الكريم /واختلاف أمتي رحمة/.

ـ على كل إن هذا الحديث يدل على أننا نسمع الرأي الآخر ونريد الآن أن نعرف رد ممثل التنظيم النقابي في هذا الموضوع.. قال رئيس المجلس موجهاً حديثه إلى أحد الأشخاص الجالسين في الاجتماع.

ـ أي موضوع.. ؟ قال متسائلاً ممثل العمال.

ـ كأن ممثل العمال نائم.. إنا نتناقش منذ ثلاث ساعات وعندما أردت أن تتكلم أخذت تتساءل وكأنك خارج الاجتماع.. علق أحد أعضاء المجلس متهكماً.

ـ نريد رأيك في حجز الأموال المنقولة وغير المنقولة لخالد وزملائه وإحالتهم أمام القضاء.

ـ طبعاً.. هذه أموال عامة، ينبغي الحفاظ عليها.

ـ شكراً لك، فهمنا موقفك ونريد الآن أن نعرف موقف مدير الشؤون الفنية وإذا كان بالإمكان أن يشرح لنا كيف هي الأمور الفنية في المؤسسة..؟

إنني على خلاف مع بعض العناصر لدى إدارتي، فهم يتحدثون عن تحديث لخطوط الإنتاج في المؤسسة وضرورة إيجاد علاقات جديدة بين الإدارات تسهّل العملية الإنتاجية وتسرّعها، لأن العلاقات الموجودة اليوم تعتبر معوّقة للإنتاج وللتقدم في المؤسسة، فلو نظرنا إلى المؤسسات الأخرى نجد أنفسنا مقصرين عن الاستفادة من تجارب الآخرين ومن رياح التطوير والتحديث التي تهب على العالم وبالتالي فإننا نبقى أسرى نظرتنا الأحادية إلى العالم ويكون مصيرنا التخلف عن مواكبة ركب الآخرين.. فالإنسان كما يقول المثل (إذا لم يجرِ يأسن).

ـ ما هذا الكلام..؟ هل نتحدث ڤي اجتماع مجلس إدارة وتحديداً لنقرر هل ينبغي علينا أن نقوم بحجز الأموال المنقولة وغير المنقولة لمن طالتهم التهمة ڤي المؤسسة ونحيلهم إلى القضاء أم لا..؟ لكنني أرى أن المدير الفني يقدم عرضاً ڤي الفلسفة والبلاغة..!

ـ أنا أتحدث عن عملية الإنتاج وأشرح وجهة نظر ڤي تطويرها وأشير إلى أسباب إعاقتها وأقترح الحلول ڤي معالجتها. أما الإحالة أمام القضاء وقرار حجز الأموال لبعض العاملين فهو يدخل ڤي سياسة المؤسسة التي تقررونها أنتم ولكم حرية إجراء ما ترونه مناسباً.

ـ أستاذ مطيع.. نظّم مسودة قرار يتضمن حجز الأموال المنقولة وغير المنقولة لخالد الساعدي وزملائه ڤي المادة الأولى وڤي المادة الثانية إحالتهم إلى القضاء أصولاً.

* * *

بعد انتهاء الاجتماع وبينما كانت وصال تسير ڤي الباحة الخارجية لبناء المؤسسة التقت بآمال فقالت لها بشيء من التشفي:

ـ لقد أحيل إلى القضاء أبو العيون السود.

ـ من تقصدين..؟

ـ الذي تدافعين عنه.. حبيب القلب، خالد أفندي.

ـ احترمي نفسك، ولا تخطئي ڤي التعبير.

ـ لقد تم اتخاذ قرار يتضمن حجز الأموال المنقولة وغير المنقولة لخالد الساعدي وزملائه وإحالتهم إلى القضاء.

كانت مسودة القرار في يد وصال.

ـ أرني القرار.. تأخذ آمال مسودة القرار من يد وصال وتقرؤه بسرعة وتعلق غاضبة.

هذا ظلم.. لقد دبروا له مكيدة.

ـ هذا ما يصيب الغشيم.. تعلق وصال ساخرة.

ـ قولي الشريف وليس الغشيم.

ـ الشريف.. الغشيم.. كله واحد، ليس مهماً التسمية المهم النتيجة، فلو كان شريفك فهيماً لما حصل معه هذا، إلا أن شريفك غشيم.

ـ هذا وقفاً لمعيارك أنت وهم.

وأشارت بيدها اتجاه الجناح الذي يقبع فيه رئيس مجلس الإدارة.

على كل حال أريد منك أن تأخذيني إلى السيد رئيس المجلس.

ـ ماذا تريدين منه..؟

ـ أريد أن أحدثه.

ـ هل تحسبين أنه سيهتم لكلامك.

ـ يهتم أو لا يهتم.. أريد أن أكلمه.

ـ إذا كنت تريدين ذلك تفضلي، لا مانع لدي.

ـ أهلاً بالآنسة آمال.. لو لم تأتِ بك وصال لما أتيت.

على العكس يا أستاذ، أنا أتيت بوصال.

ـ معنى ذلك أن لديك حاجة معينة.. وينبغي على المرؤوس أن يزور رئيسه مرة كل أسبوع أو كل شهر مرة على أقل تقدير..؟ أم تحسبين أننا مسؤولون عن ترك زميلك السابق ومن معه العمل.

ـ بالواقع أنا أتيت إلى عندك في هذا الخصوص.

ـ ألا تعتقدين أن العمل الآن أصبح أفضل وأسهل من ذي قبل..؟ لقد كان خالد الساعدي يؤخر العمل ولا يسهله.

ـ لا أعتقد ذلك يا أستاذ.

ـ ماذا..؟ ثم يقول ضاحكاً:

إنني أعلم أنه يوجد بينكما استلطاف أو ما شابه لكن ذلك ينبغي أن لا يمنعك يا آنسة آمال أن تكوني موضوعية وتغلبي مصالح المؤسسة التي تعملين بها على مصالح إنسان أساء إليها ولو كنت تستلطفينه .

ليس لهذا علاقة، وإنما أنا متحمسة له لأني أعلم أنه مظلوم.

ـ هذه الأيام لا يُعرَف المظلوم من غيره، أنت انتبهي لأمورك في المؤسسة وحاولي أن تحسنيها، أنت مدعوة مع وصال على الغداء ويمكن أن نتفاهم.

ـ شكراً لك.. هيا وصال لنذهب.

ـ أقنعيها أن تأتي معك، فهي لا تعرفني جيداً. قال رئيس المجلس ذلك موجهاً حديثه إلى وصال التي كانت قريبة منه إلى حد الالتصاق.

* * *

صباح الخير يا سيد خالد.

صباح النور.. أهلاً جمانة.

كيف كان يوم عطلتك هذا الأسبوع.

جيد.

هل قضيتها في بيروت..؟

نعم

كيف رأيتها.. ؟

غير شكل..!

كيف يعني غير شكل..؟

كما يرى الرجل امرأة مختلفة عن النساء الأخريات..

هكذا إذن.. بيروت امرأة..؟

بمعنى من المعاني نعم..!

هل يعني ذلك أنك تمدحها أم تذمها..؟

كما هي طبيعة المرأة فيها السعادة وفيها الشقاء.

وأنت ماذا وجدت بها.. السعادة أم الشقاء..؟

حتى الآن، لم أدخل إلى عالمها الداخلي ولا أعرف على وجه اليقين ماذا ينتظرني هناك فيما لو دخلت إلى عالمها الداخلي وجلت بين حناياه.

ما رأيك إذن أن أعرفك أنا على بيروت وتقوم أنت بتعريفي على تلك الهضبة..؟ وأشارت بإصبعها إلى جهة الغرب.

أنا حاضر.

أي ساعة..؟

الساعة الرابعة، أصعد أنا ومن ثم تلحقين بي أنت إلى هناك، وسأكون على طريق السيارات بانتظارك.

بعد الظهر كان خالد وجمانة يصعدان الهضبة تاركين وراءهما طريق السيارات ومن بعد المدرسة وهما يمسكان بجذوع الشجيرات الصغيرة تفادياً للسقوط، يعبان الهواء في صدريهما تعويضاً عن الجهد المبذول أثناء الصعود.

كانت جمانة ترتدي بنطالاً طويلاً من الجينز بدلاً من تنورة الصباح وكنزة صوفية وتتدثر بشالٍ من الصوف تضعه فوق كتفيها.

أشرفا على قمة الهضبة، بدا المنظر ساحراً.. بحر مترامٍ على مرمى البصر وشاطئ يحدده طريق عام السيارات يصل بيروت بالجنوب اللبناني بينما يقع المطار إلى جوار المدينة شرقي الطريق العام، وقد بدت طائراته جاثمة على الأرض وقد ظهرت إحداها وقد انفصلت عن الأرض لترتفع محلقة في السماء مرسلة بريقاً لامعاً بفعل انعكاس أشعة الشمس عليها وهي تلتفت منعطفة اتجاه الغرب، ماضية إلى عالم آخر وقارة أخرى بسرعة تكاد لا تصدق.

الله.. ما أجمل المنظر.. كأنني أنظر إلى شاشة سينما كبيرة بالألوان الطبيعية..!

لقد كان المنظر جميلاً بالفعل حيث تنهض على الهضبة مجموعة من أشجار الصنوبر مرتفعة الساق بينما قبعت في أعاليها مجموعة الأغصان الأبرية الشكل وقد اجتمعت قممها إلى بعضها البعض لتشكل غطاء علوياً أخضر لأرض الهضبة التي علتها طبقة من أوراق الأشجار المتساقطة ومجموعات من الشجيرات الصغيرة التي التفت حول بعضها البعض لتشكل خميلةً يختبئ بها أرنب بري أو ثعلب في جوار كوخ حارس الغابة الذي يبدو من خلال بابه المفتوح أنه قد هجر منذ زمن.

هل اكتشفت هذا المكان منذ زمنٍ طويل..؟

منذ قدمت إلى هنا.

تباً لهذه السيارات، إنها تحرمنا من متعة التجول سيراً على الأقدام واكتشاف مناطق جميلة في جغرافية الأرض.

تعالي اجلسي هنا.

ألا يوجد رطوبة..؟

فوق الأعشاب وأوراق الشجر تكون الرطوبة أقل.

جلسا يتأملان الأفق بينما كانت أمواج البحر تبدو من بعيد كألوان مائية على دفتر رسم أحد الأطفال.. وفي البعيد البعيد كان يتراءى مركب يتهادى وهو يقترب من الميناء بينما ظهرت السماء كأنها أقرب إلى الأرض من ذي قبل.

لاحت بالأفق بعض الغيوم الداكنة تقترب منذرة أن وقت الصحو يوشك على الانتهاء.

هل هناك امرأة في حياتك..؟

كان السؤال مفاجئاً أربك خالد في الإجابة السريعة عنه.

ماذا بك.. ؟ هل أحرجك السؤال..؟

لا أبداً.. وإنما فاجأني السؤال فقط.

هل من الغرابة أن أسأل هكذا سؤال.

لا.. لكن..؟

إذا كنت محرجاً، يمكنك أن لا تجيب وأنا يمكنني أن أخمّن الإجابة.

لا.. لا يذهب فكرك إلى بعيد.. أنا لي.. صديقة.

صديقة.. ؟ في أي مستوى.. ؟ مثلي أنا مثلاً.. ؟

الواقع هي زميلتي في العمل السابق.

هل تحبان بعضكما البعض.

لا أعلم.

كيف.. أنا أعلم أن الإنسان لا يعلم أحياناً فيما إذا كان الطرف الثاني يحبه أم لا.. أما أن يكون الإنسان لا يعرف فيما إذا كان هو يحب الطرف الآخر.. هذا شيء مضحك.. تعلق جمانة ساخرة من إجابة خالد.

في الواقع لم نفكر في أن شكل علاقتنا قد يتخذ شكل علاقة حب لقد كانت علاقة عمل وانسجام وتفاهم.. وأنا أسألك بدوري.. هل أنت متزوجة.

كنت سابقاً.

والآن.

خرجت من عداد المتزوجات وسأدخل عالم المطلقات.

لماذا.. شابة جميلة مثلك تتعرض للطلاق في هذا السن المبكر من حياتها..؟

لأن الزواج السريع والسعي وراء المظاهر البراقة تكون نتيجته غالباً مقرونةً بالفشل.

كيف كان ذلك..؟

كان زوجي مغترباً في أميركا وقد تعرفت عليه في الصيف منذ سنتين عندما كان قادماً إلى لبنان، لقد بهرني بمظهره الخارجي، ملابس رفيعة المستوى وسيارة فخمة وسهرات وعزائم في أماكن راقية، وافقت على الزواج به عندما فاتحني بالموضوع دون تردد حيث تزوجنا وسافرنا إلى بلد الاغتراب في نهاية الصيف وهناك أمضينا بعض الوقت مستمتعين بزواجنا وحياتنا إلا أنه بعد ذلك تفاجأت بعلاقاته الغرامية التي كان يقيمها قبل الزواج وقد استمر بها بشكل واضح، سهرات إلى ساعات متأخرة من الليل، مبيت خارج المنزل، إهماله لي واستهتاره بعواطفي.

هذا نتيجة التسرع.. على كل، كل إنسان يمر بتجربة، قد يفشل أو ينجح بها، المهم أن يستفيد منها.

بدأ المطر في الهطول قطرة وراء قطرة ثم أصبح غزيراً متواصلاً لا يمكن احتماله. خلع سترته ووضعها على رأس جمانة التي طلبت العودة إلى الطريق العام.

من الصعب النزول تحت المطر.. سنذهب إلى ذلك الكوخ نمكث فيه قليلاً ريثما تهدأ العاصفة.

ركضا بسرعة إلى كوخ الحارس الذي كانت الريح تعبث في بابه الخشبي المتهالك، دخلا بسرعة ووقفا لالتقاط الأنفاس بينما كانت قطرات المطر تسقط من خصلات شعر جمانة التي لم تحمها السترة التي وضعها خالد على رأسها منسابة على صدرها الذي ما زال ينتفض بفعل مجهود الركض المبذول للوصول إلى الكوخ.

هدأت أنفاسها، حاولت نزع السترة التي انزلقت إلى كتفيها وإعادتها إلى خالد.

أعاد السترة إلى كتفيها دون كلام ضاغطاً على الكتف براحة يده، أحس بحرارة جسمها تحت الثوب المبلل بالمطر وبالدفء يشع من وجنتيها، ودون تفكير منه انزلقت شفتاه على شفتيها وضغطها بقوة نحوه، مرت ثوانٍ عدة قبل أن تحاول التملص من يديه.

هيا نذهب.

تريثي قليلاً حتى ينقطع المطر.

لقد توقف المطر.. ودون أن تتلقى تعليقاً مضت خارجة من الكوخ.

كان المطر قد انقطع وافترت السماء عن ابتسامة زرقاء تتخللها الغيوم الراكضة جهة المشرق يعلق في أذيالها أشعة الشمس الذهبية المائلة إلى الغروب.

وقفا على الطريق بانتظار سيارة أجرة تمر إلى قريتها.

هل أوصلك إلى القرية..؟

لا داعي لذلك.. وشكراً لك على هذه النزهة.

توقفت سيارة صعدت إليها جمانة مودعة.

إلى اللقاء.

إلى اللقاء.

مضى هابطاً الطريق إلى المدرسة وهو يرقب السيارة التي مضت في الطريق المتعرج بين الجبال حتى اختفت وراء منعطفٍ حاد حجبها كلياً عن النظر.

دخل غرفته، كانت باردة على غير العادة. لم يجد رغبة في الكتابة أو القراءة، فكر أن يذهب إلى زميله يحيى الذي يسكن في غرفة مجاورة بنفس الردهة لكنه لم يجده.

عاد إلى غرفته شاعراً بالتوتر.. اضطجع على السرير مفكراً عن سبب توتره.. هل لأنني فارقت جمانة على غير رغبة مني..؟ أم القبلة التي انتزعتها منها وتمنيت لو تطول أكثر من ذلك..؟ هل معنى ذلك أنني بدأت أتعلق بها..؟ وهذا يعني أنني أحبها.. وإذا كنت أحبها فما هو معنى علاقتي بآمال..؟ هل هي مجرد زميلة كما قلت عنها لجمانة..؟

بل ماذا أسمي خلافها مع حسن أفندي بشأني عندما حاول أن يسيء إلي وأنا غائب..؟ ولهفتها عليّ عندما تغيبت عن العمل بسبب المرض.. ومجيئها إليّ في المنزل رغم بعد مكان إقامتها عن بيتي للاطمئنان عليّ.. أليس هذا حباً..؟

صحيح أننا لم نلتقِ لقاءات حميمة كما يقولون، ولم يضمنا فراشٌ واحدٌ، ولم نتبادلْ حتى القبل. إلا أن الرغبة في أن نكون مع بعضنا البعض وتوافق أفكارنا يدل على مشروع علاقة حبٍ قد تنشأ بيننا فيما إذا ساعدت الظروف على ذلك.. كان قد استلقى على السرير عندما بدأت خواطره وأفكاره تنسحب شيئاً فشيئاً من دائرة الشعور تاركةً صاحبها يغط في نوم عميق وشخير متقطع بسبب التعب الذي ناله ذلك اليوم جراء العمل ونزهته الممطرة بعد الظهر فوق الهضبة برفقة جمانة.

استيقظ يا رجل.. ما بك تنام في مثل هذه الساعة..؟

كان ذلك صوت زميله يحيى الذي عاد إلى غرفته وعلم أن خالداً أراد زيارته ولم يجده فاتجه إلى غرفة خالد حيث سمع شخيره من وراء الباب الذي لم يتعود خالد أن يغلقه برتاج أو مفتاح.

أهلاً يحيى تفضل.. لقد نمت قليلاً ولم أتوقع أن أبقى إلى هذا الوقت.. كم الساعة..؟

إنها العاشرة..

لقد نمت أكثر من خمس ساعات دون أن أشعر.. عن إذنك حتى أغسل وجهي وأضع القهوة على النار.

إن وجهك مشرق.. هل إشراقه بفعل الماء البارد أم ماذا..؟

حقاً.

نعم.. أين كنت عصر هذا اليوم.. ؟ إن هذا الإشراق دليل على أنك قضيت وقتاً سعيداً.

كنت في نزهة على الهضبة.

لوحدك.. أم مع أحد آخر.. وغمز بطرف عينه.

- لا يهم.. لوحدي أم مع غيري، المهم أن النزهة كانت ممتعة.

- أنت حر بعلاقاتك النسائية، وكل إنسان يطبق الحب بالشكل الذي يراه مناسباً.. أنا مثلاً عندما أنزل إلى بيروت يوم العطلة اذهب إليهن..؟ وهناك أستطيع أن أنتقي المرأة التي تعجبني.. البيضاء.. الشقراء.. أو السمراء إذا شئت.. والحب معهن لا يحتاج إلى مقدمات أو رتوش.. أنا يا أخي صريح في الذهاب إليهن، وهنّ صريحات في ممارسة الحب معي.. خذ السيدة ميراي إنها تقيم علاقة مع شيف المطبخ.

- تلك السيدة الفرنسية.. ؟ التي أخبرتني أن لها حصة في ملكية المدرسة..؟

- نعم والكل يعلم ذلك...!

- وزوجها.. أين هو.. ؟

- مقيم غالباً في فرنسا.

- لقد لاحظت ذلك.. كيف تعامل سليم برقة زائدة.

- وهو جدير بان تحبه النساء فعلاً.

- محظوظ الرجل الذي يسعد بحبهن.

سهر خالد تلك الليلة بعد أن انصرف يحيى من عنده إلى ساعة متأخرة من الليل وقد شدته قصة الأديب الفرنسي غي دي موبسان (كتلة الشحم) التي تتحدث عن ركاب إحدى عربات النقل التي تجرها الخيول خلال فترة الاحتلال الألماني لباريس في حرب عام ١٨٧٠ حيث يقوم أحد

الضباط الألمان باحتجاز الركاب ولا يقبل إطلاق سبيلهم إلا بعد أن تقبل إحدى المومسات والتي تركب العربة صدفة أن تنام معه، وتصور القصة كيف أن النبلاء الذين يفاخرون بوطنيتهم وشرفهم الفرنسي ويترفعون عن التعامل مع تلك المومس واسمها (كتلة الشحم) أخذوا يدفعون بها إلى أحضان ذلك الضابط الألماني لإرضاء رغباته وتجعله يطلق سراحهم... إن كتلة الشحم تلك كانت أكثر كرامة ووطنية من أولئك الذين يصطنعون الوقار المصلوب على قوة وتعب الآخرين.



أفاق من النوم في ساعة متأخرة بعد أن طال سهره مع زميله ليلة أمس، كان مزاجه رائعاً بفعل الانطباعات التي خلفتها قصة (كتلة الشحم) والأفكار التي بعثتها في نفس خالد، لم يكن ثمة عمل مهم يومئذٍ ولا ضرورة للصعود إلى الطابق العلوي، بل آثر البقاء في غرفته واحتساء القهوة ومتابعة الاسترخاء في سريره.

سمع طرقاً خفيفاً على الباب، ناعماً مختلفاً عن طرقات زميله يحيى الذي اعتاد أن يطرق الباب بعنف ظاهر.

من.. ؟ تفضل

تتابع الطرق، كأن الطارق يأبى الدخول إلى أن يفتح له من الداخل.

نهض من سريره واتجه إلى الباب وفتحه..

ـ من.. جمانة..؟

ـ صباح الخير.. أو ينبغي عليّ أن أقول مساء الخير..؟

ـ أهلاً وسهلاً.. قال مرحباً بجمانة وقد أربكه قدومها لزيارته دون علم مسبق.

ـ معذرة.. الغرفة غير مرتبة..

ـ لا بأس.. لقد تأخر الوقت ولم أرْكَ اليوم فحسبت أنك مريض وأتيت لأطمئن عليك.

ـ تفضلي.. تفضلي اجلسي وقرّب كرسياً إلى الطاولة الصغيرة الموضوعة أمام السرير.

بالإذن منك حتى أغسل وجهي.. ثم نهض حاملاً منشفة واستدار ذاهباً إلى الحمام للاغتسال.

أحس بيد جمانة أمسكت بساعده وبخدها يلتصق بكتفه وهي تقول بأنفاس متقطعة.

ـ لقد اشتقت إليك..!

التفت نحوها ممسكاً كتفيها بكلتا يديه ونظر إلى وجهها الذي اصطبغ بحمرة قانية بفعل الهياج العاطفي.

جمانة..

وانهال على شفتيها بقبلة حارة بينما ضغطت اليد على ثمرة الرمان في الصدر وبرمتها بعنف ثم انسلت تمسّد الخصر الذي أخذ يتلوى تحت اليد الضاغطة التي سرعان ما نزلت إلى الردفين وجالت عليهما تستطلع هضابهما وتموجاتهما تحت ثوب سرعان ما انزلق عنهما كاشفاً حوضاً مرمرياً أبيض يدعو إلى فعل الطبيعة الصاخب على السرير المجاور وأنفاس

متقطعة لاهثة تخرج غير عابئة بمن يسمع الصوت أو قد يكون في الخارج يقف شاهداً على علاقة حبٍّ تكونت حديثاً.

رقدت في السرير مسترخية شعثة الشعر بعد صخب اللقاء.

ـ ما بك.. ؟

ـ لا شيء.. أعطني سيجارة.

ـ أنت لا تدخنين كما أعلم.

ـ صحيح.. لكنني عندما أكون مسرورة أحب أن أدخن سيجارة.

لا تستطيعين أن تبقي هنا طويلاً.. يمكن أن يأتي يحيى ويسأل عني.

لبست ملابسها بسرعة وأعادت تصفيف شعرها بمشط صغير كان في حقيبتها، سمعت جلبة في الخارج، كان صوت يحيى وعاملٍ آخر في المطعم يهبطان الدرج، صمتت جمانة واقتربت من خالد وألقت برأسها على صدره الذي ضمها بإحدى يديه ووضع اليد الأخرى على الباب مترقباً انصراف يحيى وزميله من الردهة حتى تتمكن جمانة من الخروج دون أن يراها أحد.

بهدوء.. هيا.. لقد دخلا إلى غرفة يحيى.

خرجت متسللة من الباب بعد أن طبعت قبلة على خد خالد وهي تحاول ألا يحدث وقع خطواتها على الدرج أية أصوات مسموعة.

- ٤ -

في اليوم التالي وبينما كان خالد يعبر فناء المدرسة.

رسالة لك يا خالد.. لوحت جمانة برسالة كانت تحملها بيدها وأخذت تداعب خالد بشيء من الغيرة استشعرتها من خلال قراءة اسم المرسل /آمال../ لكن قل لي من هي هذه.. الآمال..؟

من..؟ ناوليني الرسالة.

يا لطيف.. لِمَ هذه اللهفة..؟ قل لي من هي آمال تلك صاحبة الرسالة.

إنها زميلتي في المؤسسة سابقاً.

زميلتك أو شيء آخر..؟

ناوليني الرسالة أرجوك.

تناول من يدها الرسالة ومضى إلى غرفته لقراءتها على مهلٍ فقد كانت الرسالة سميكة توحي بأنها تحمل أخباراً مهمة.

امرأتان تتصارعان عن بعد، واحدة بجسمها ولحمها تحاول أن تمزق المرأة الأخرى القابعة في الرسالة كي تمنعها من الدخول إلى عالمها الذي يخصها ولا تدعها تقع في يد حبيبها كأنه إذا ما فتح الرسالة وقرأها قد عانقها وقبلها. والأخرى تحاول على البعد أن تقول له أشياء تفوح منها رائحة الشوق دون أن تبوح به صراحة، فهي تلمح تارةً هنا وطوراً هناك، إنها مشتاقة إليه، لكن الحدود التي تعاملت مع خالد من ورائها قبل سفره لم تسمح لها بالتجاوز إلى الإعلان الصريح والمباشر، هي نادمة لأنها لم تعبر له صراحة قبل سفره حتى يكون كل منهما على بينة اتجاه الآخر، وبالتالي فإنه يدرك مشاعرها، فإن كان يحبها فهو لن يفرّط بها ولن ينساق مع أي امرأة قد يجدها هنا أو يلقاها هناك.

هل التصريح بالحب في رسالة يمكن أن يستدرك ما فات؟ راودت آمال تلك الأفكار أثناء كتابة الرسالة.

ألن يقول عنها خالد إذا ما باحت له في حبها بأنها سخيفة لأنها عبرت له في هذه الطريقة الساذجة بعد أن كان في متناول يدها يراها وتراه يومياً ويبقيان لوحدهما أحياناً ومع ذلك لم تعبر له عن حبها.

وهل من المفروض أن تعبر له هي.. ؟ لماذا لم يبدأ هو بذلك إذا كان يحبها.. ؟ ربما عبر هو عن ذلك بطريقة لم تفهمها وقد ظنتها حركات وإيماءات إعجاب وزمالة لا أكثر ولا أقل.. أليس اتصاله بها في وقت متأخر من الليل دليل على حبه لها..؟ أم مجرد ضيق كان يشعر به ورأى فيها الإنسانة المناسبة لكي يفرغ همومه في جعبتها، أليس اعتباره لها مكاناً لتفريغ الهموم هو احتقار لها..؟ لأن من يحبه الإنسان يقلق له

ويتعامل معه بحذر شديد أما الأشياء التي لا يكترث لردود فعلها فإنه يهملها ويركن الإنسان إليها ويتعامل معها كأشياء ثابتة، جامدة، لا مشاعر متحركة.

هذه الأفكار جعلت من آمال تغير رسالتها أكثر من مرة، فبعد أن كانت تتضمن مشاعر حب صريحة قامت بتغيير الرسالة وضمنتها لغة أكثر رسمية وعملية من لغة الحب والمشاعر.

قرأ خالد الرسالة بتمعنٍ شديد وهو مستلقٍ على ظهره في السرير، كان وجه آمال يبرز إليه من بين السطور وهي تحدثه بقلق عن وضعه في المؤسسة وكيف يحاولون إلصاق التهم به مستفيدين من غيابه، وعدم تمكنها هي من تفنيد مزاعمهم.. تذكر حواره معها عندما كان في المؤسسة.

لماذا لا تساير مجلس الإدارة يا خالد.. فهو يحكم المؤسسة بشكل كامل، وأنت ترى أنصاره موزعين في كل مكان، ومن لا يكون معهم فإن مصيره الإهمال ومن الصعب أن يحلم بأن يكون أمامه فرصة لكي يتطور.

الأمر ليس في هذه الصورة التي تتصورينها يا آمال، إن قسماً كبيراً من أعضاء مجلس الإدارة غارقٌ بالفساد حتى الأذنين وهم لا يؤمنون بمبدأ النزاهة والنظافة ويخولون لأنفسهم أن يفعلوا ما يشاؤون، ويعتبرون أن المؤسسة لهم ويلتفون مع محاسبيهم وأزلامهم على المفاصل الأساسية بحيث يصعب على أي شخص من خارج الدائرة التي رسموها أن ينفذ إلى الداخل.

حتى انتخابات مجلس الإدارة لا يسمحون بها بشكل حر، فهم يريدون انتخابات مضمونة النتائج تكفل لهم البقاء في قمة المسؤولية وهم يملكون أدوات تخويف الآخرين، هم من يمنح المكافآت والتعويضات والإيفادات إلى

الخارج وهم من يسند المناصب إلى هذا الشخص أو ذاك، والآخرون إما خائفون أو متزلفون بانتظار مكسب أو فائدة معينة ينتظرونها من المجلس الكريم.

وأنت تفضل الانسحاب.. ماذا تسمي موقفك هذا..؟ انهزامياً أم نفعياً..؟ لأنك تفكر في سلامتك الشخصية أما المؤسسة التي بنيناها جميعاً وقد تسلط عليها مجلس الإدارة فإن مصيرها لا يهمك.

لا يهمني.. كيف.. ؟ إن البقاء على هذا الوضع غير ممكن فهم سيلفقون لي تهمة معينة، أو يحاولون مضايقتي إلى أقصى الحدود مع عدم استفادتي من المميزات والغنائم التي يغدقونها على الآخرين.

هل أنت خائف من المديرية التي تسلمتها..؟

قليلاً.. أنا لم أكن أعرف أعضاء مجلس الإدارة بشكل صحيح وإلا ما كنت قبلت أن أستلم وظيفة مدير قانوني ومسؤول مستودعات.

لقد نبهتك على ذلك إن من يستلم هذه الوظيفة يمكن أني يقع في الفخ، وهذا الفخ ينصبونه هم لمن يشاؤون ولا يستطيع أن يخرج من قبضتهم، وأنت قد غلبك الحماس على الحذر..

والدي أيضاً لا يعرف كيف تسير الأمور في المؤسسة ويعتبرني مخالفاً لسياسة مجلس الإدارة التي لا يجوز لأحد أن يخالفها.

كان صوت آمال يتردد صداه في مسامع خالد كلما اختلى إلى نفسه متذكراً بعض المواقف التي أصبح يعتقد أن آمال كانت أكثر حذراً منه بل أكثر ذكاء لأنها كانت ترى الأمور بمنظار حقيقي أكثر من منظاره هو الذي تغلب عليه المثالية والسذاجة، ولم يأخذ تنبيهاتها بعين الاعتبار

عندما حذرته من مدير الشؤون التجارية الذي لم يكن يتبع الإجراءات القانونية في العمل وها هو يقدم شهادته وخبرته ضد خالد خلال التحقيق في قضية المواد المسروقة.

لقد وصل الأمر إلى حد تغيير نوع المواد الأصلية واستبدالها بمواد تجارية ومستعملة لا تصلح للاستخدام.. وعندما كشف الأمر من قبل التفتيش قام المجلس بتحميله مسؤولية تبديل نوع المواد واتهام خالد ورفاقه بالغش وتحميلهم فارق السعر بل واتهامه بالتخريب الاقتصادي وهذه جريمة يعاقب عليها بموجب قانون العقوبات الاقتصادية في أقصى العقوبات، إلا أن بعض أعضاء مجلس الإدارة قد توسط في الموضوع وحاولوا استبدال الوصف الجرمي من التخريب الاقتصادي إلى الإهمال والتسيب والسعي للحصول على منافع مادية من وراء العمل.

كان خالد الساعدي يقتنع من خلال حواره مع آمال بتفوق الأنثى على الرجل في حساسيتها واستشعارها للأشياء أحياناً قبل الرجل، وهذه الخاصية تلاحظ في جميع الإناث، ربما لأن صفة الأنثى تجعلها تبدو قلقة، حذرة، متخوفة أكثر من الذكر، الأمر الذي يجعل درجة شعورها بالخطر أكبر منه، أما الذكر عامة والرجل خاصة فإنه يكون أقرب إلى الطمأنينة من الأنثى التي تبدو دائماً قلقة، ربما يكون السبب في امتلاك الرجل لإحساس القوة الأمر الذي يظهره مطمئناً متفوقاً على خلاف الأنثى التي تستشعر الخطر قبل وقوعه. خاصة إذا كان هذا الخطر يتأتى من وجود أنثى أخرى، فإن رائحة الأنثى الجديدة تشم عن مسافة بعيدة.

كانت الرسالة تتضمن أيضاً تلميحات عن زميلتها وصال وكيف تتساق وراء رغبات مجلس الإدارة في السهرات ومرافقة البعض خارج أوقات الدوام وقد تضمنت التلميحات إلى أن بعض العروض تعرض عليها أسوة بزميلتها وصال دون أن تبين أنها قد قبلت العرض أم لا.. ربما كانت اختباراً لخالد وردود فعله اتجاه هذا الأمر.. هل هو يغار عليها أم لا . وإذا كان يغار عليها فهي ستعرف ذلك من خلال رسالته الجوابية.

ربما كانت آمال لا تبعث في نفس خالد تلك الرغبة الجامحة للوصول إليها بسبب أنها لا تجعل من خالد يتكلف عناء التواصل معها ، فهو يضمن موقفها سلفاً ولا تحتاج إلى شرح وتفهم كبيرين، والنساء بطبيعتهن لا يعبرن صراحة عما يردن، وهن يجعلن الرجل في حالة تشكك دائم اتجاههن وبالتالي يجعلنه يشعر بالقلق ويسعى إلى التقرب منهن وإرضائهن، وبالنسبة لآمال كان يحسب خالد أنها تحصيل حاصل ويعرف مسبقاً كيف تفكر بأمرٍ ما أو موقف ما.

أما هنا فلا أحد يشاركه رؤيته للأشياء أو يبادله الرأي الذي يثق به كما يثق برأي آمال. لقد أحسّ بحاجته إليها وإلى رغبته في أن يتناقش معها حول أمورٍ تهمه وتهم الآخرين في المحصلة النهائية ، فهي تملك تلك الرؤية الشمولية للأشياء وترى بعين المصلحة العامة. ونادراً ما ناقشت معه قضية شخصية تهمها ، لقد شعر بشيء من الأسف لأنه فعلاً لم يسألها عن أشياء تهم حياتها الشخصية ، بيتها.. أسرتها.. مزاجها. كان ينبغي له أن يكون أكثر رقة ودفئاً اتجاهها ويمكن أن يكون موقفها نفسه الذي لم يتجاوز الحدود التي رسمتها لنفسها هو ما ألزمه بحدود معينة ينبغي له أن لا

يتجاوزها، وحتى نهاية رسالتها كانت تتضمن نفس الأسلوب المعتاد منها.

..... وتحيات آمال لك.

ماذا تعني هذه النقاط قبل كلمة /تحيات/.. ؟ هل تخجلين أن تكتبي / قبلات.. ؟ هل استكثرت عليّ أن تطبعي قبلاتك على شفتي، حتى على الورق وأبدلت كلمة قبلات بالنقاط.. ؟ ها أنت تتصرفين بغريزتك الأنثوية التي تحاول أن تكون لغزاً من جديد وتطلقين إشارات مشفّرة وتطلبين مني أن أحل تلك الشيفرة.



كانت جولة خالد المسائية في الطوابق العليا للمدرسة للتأكيد من خلو الصفوف من الطلبة الذين قد يتخلفون لسببٍ أو لآخر، وللتأكد من إعادة ترتيب المناضد وأثاث الغرف بشكل سليم استعداداً ليوم دراسي جديد.

اقترب من المكتب الخاص لمدام ميراي الذي تزاول أعمالها به عندما يحتاج الأمر إلى أن تبقى إلى وقت متأخر من الليل.

كان الباب موصداً، إلا أن الضوء ينبعث من الشرفة المطلة على البهو وقد انفرجت الستارة قليلاً سامحة لضوء الغرفة بالتسلل، سمع من داخل الغرفة صوت جلبة أشبه ما يكون صوت كرسي أو كنبة تزاح من مكانها وكانت تتناهى إلى السمع أصوات خافتة أشبه ما يكون بالهمس. اقترب أكثر من فرجة النافذة ونظر إلى داخل الغرفة، كانت مدام ميراي مستلقية على الكنبة شبه عارية تحيط رقبة سليم بيديها وهي تتمتم ببعض الكلمات الفرنسية أحبك سليم.. نعم أحبك..

بينما كانت يداها تمران على ظهر سليم تضغطان عليه ثم تعودان وتنفرجان من جديد وتقربان من الرأس وتعبثان بالشعر المشعث وهي تواصل ابتهالات الحب وتأوهات القلب الذي لن يطفئ لهيبه إلا نبع حب شرقي لا ينضب.

نعم يا سيدة ميراي، إن الحب لا يحتاج إلى لغة يتكلم بها وهو يعبّر عن نفسه، ومهما تكلمت لا ضرورة لأن يفهم سليم معنى كلماتك، إنه يترجمها إلى واقع ويفهمها بشكل عملي، إلا أنك تؤثرين أن تتلفظي بها، ربما لأنها تكسبك شيئاً من المتعة.

إن زميلي يحيى لديه حق عندما قال: إن كل منّا يمارس الحب على طريقته، وأنتن النساء يغريكن في الرجل أشياء أنتنّ وحدكنَّ تقدرنها، وقصة إعجابك بالشيف سليم، تبدأ من إعجابك بطعامه الذي يطهيه، إلى لباسه الذي يرتديه في المطبخ، الذي يحرص على نظافته بشكل لافت، إلى كمه المرفوع الذي يظهر منه ساعده المفتول بشعره الأسود ووجهه الذي يطفح حيوية وابتسامةً، تجعلك تذوبين به وتنسين الفروق الاجتماعية بينك وبينه..! ربما كانت تلك الفروق هي ما جمعكما مع بعض بدل أن تفرقكما في علاقة حب تسكبين فيها عشق المرأة الغربية الصريح، اللامع كلمعان فخذك المتدلي فوق الكنبة، مع شرقية سليم في بوهيميته وغموضه اللذين تتوقين إلى اكتشاف أسرارهما...

يقال إن الإنسان يبحث عن شبيهه لأنه يرتاح إليه وفي الأمثال قالوا (إن الطيور على أشكالها تقع) لكنني في علاقتكما أرى رؤية أخرى، إن الإنسان منكما يبحث على من يخالفه..! عن نصفه الآخر، على من

يكمله، ويضيف إليه بعداً وصفة جديدة.. إن الحب على طريقة ميراي الغربية يشوبه شيء من التمدد والبرود، أما الحب على طريقة سليم الشرقية، فإنه ساخن حار ينبض بالعاطفة.

* * *

ألم تصعد إلى الهضبة من جديد... ؟ سألت جمانة خالداً ضاحكةً.

لا.. بعد ذلك اليوم لم أصعد ثانية.

لماذا.. ؟

لا أدري.

ألم تعد توحي لك بالكتابة.

بلا.. لكنني لم أكتب شيئاً جديداً.. إنني مشغول.

بماذا.. ؟

لا شيء محدد.. لكنني أشعر أنني مشغول دوماً ولا أجد الفرصة المناسبة كي أكتب وأنت تعلمين أن الكتابة تحتاج إلى صفاء ذهن وإلى إحساس بالفراغ.

هذا صحيح.. وإذا كنت أنا معك، ألا تعتقد أن ذلك يساعد على صفاء ذهنك وإحساسك بالراحة.

نعم.

إذن يمكننا أن نصعد إليها ونقضي بعض الوقت.

إذا أردت ذلك، وأنا بالفعل بحاجة إلى أن أتنفس وأخرج قليلاً أتنشق الهواء العليل.

بعد الظهر كان الاثنان يصعدان إلى الهضبة من طريق السيارات جمانة تصعد دون أن يبدو عليها التعب، فهي تحاول أن لا تلهث كي لا تبدو مجهدة أمام خالد. بينما كان خالد يصعد أمام جمانة وهو يحمل كيساً فيه بعض المأكولات الخفيفة والمشروبات ويحاول أن يساعد جمانة في الصعود بيده الأخرى التي أمسكت بها جمانة وهي تصعد خلفه متجنبة التعثر بحجر أو جذع شجرة مقصوص.

أشرفا على القمة، فاختارا مكاناً يجلسان فيه بحيث يكون البحر والمطار أمام أوسع مجال للرؤية لهما.. فتح خالد الكيس وأخرج منه بعض المأكولات والمرطبات.. ناول بعضها إلى جمانة التي أسندت رأسها إلى كتفه وهي تطلق تنهيدة خرجت من أعماق صدرها.

ماذا بك.. ؟ إن تنهيدتك حرة.

نعم.

لماذا.. هل من شيء جديد؟

لا.. لكنني أحس لأول مرة إحساساً لم أشعر به من قبل.. شعوراً بالنشوة والسعادة.

ألم تعيشي أوقاتاً مثل هذه مع زوجك السابق..

لا.. لم يكن يشعرني بالحب إلا عند ممارسة الجنس فقط..

فقط الجنس هو ما كان يجمعكما كزوجين..؟

هكذا كانت طبيعة علاقتنا.. ربما لأنه من النوع العملي والمادي وهو بالتالي لا يقيم وزناً للمشاعر أو الجو الدافئ الذي ينبغي أن يسيطر على

حياة الرجل والمرأة قبل ممارسة الحب......!

ظهر المطار أمامهما بمدرجاته العريضة وخطوطه البيضاء بينما كان هيكل طائرة ينزلق على الأرض ببطء في البداية، كأنها بطة نزلت إلى الماء حديثاً وسرعان ما تزيد رشاقتها وسرعة عومها في الماء.

كان جسد جمانة المتكئ على كتف خالد ينزلق جانبه إلى الأرض ويديها تجذبان عنقه إليها.. إن الموقع والمنظر يغريان بممارسة الحب في المكان الذي يجلسان فيه ولا حاجة إلى قطع سيل الأحاسيس والمشاعر التي تتنابهما إذا ما فكرا بالذهاب إلى الكوخ.

الطبيعة هي الحاضنة، سماء زرقاء تتخللها بعض السحب البيضاء وأغصان أشجار صنوبر تصدر هفيفاً بفعل الهواء الذي يهب من جهة الغرب، بينما كانت بعض الأغصان اليابسة والأوراق الجافة تصدر صوت تكسر بفعل ضغط الجسدين فوقها بحركة ضاغطة وأقدام متوترة تحاول أن تجد مستنداً لها في الأرض فتنشئ حفراً صغيرة تبقى آثاراً لطقس غرامي بين ذكر وأنثى، بين رجل وامرأة، تحابا وسجلا ذكرياتهما على أديم الأرض وزرقة السماء.

آه.. ما أجمل هذه الهضبة.. وما أمتع الحب فيها، إني أحس وأنا فيها إنني جزءٌ من الطبيعة...!

قالت ذلك وهي تعيد ارتداء ما نزعته في لحظات اللاوعي، عندما كانت السماء تمور في عينيها وأعالي فنن الأشجار تدور، وأوراقها تتراقص أمام ناظريها.

أنت رائعة جمانة... وأخذ ينفض عن ظهرها ورأسها أوراق الأشجار وإبر الصنوبر التي علقت أثناء اضطجاعهما على الأرض.

- ٥ -

في بهو المؤسسة التقى الأستاذ سامي مع آمال، مد يده مصافحاً.

مرحباً آنسة أمال.

أهلاً أستاذ سامي.. لي عتب عليك.

خير إن شاء الله.

ما هذا القرار الذي اتخذتموه بحق خالد.

أنا أعرف يا آنسة أن خالداً مظلوم.. لكن إذا أردت أن تفهمي ما جرى تفضلي إلى غرفتي حتى أشرح لك.

دخلا إلى غرفة الأستاذ سامي. كانت الغرفة بسيطة بأثاثها المتواضع ومحتوياتها، طاولة عادية عليها جهاز حاسوب وخزانة مليئة بالأضابير، بضعة مقاعد، وصورة قديمة معلقة على الجدار لمبنى المؤسسة بالإضافة إلى شعار موضوع في لوحة كتب عليه (اليد المنتجة هي العليا..).

رأت آمال أن مكتب الأستاذ سامي عادي جداً ويختلف عن مكتب المدير العام، بل عن مكتب المدير التجاري المفروش بأثاثٍ حديث، ديكورات مميزة وعشرات النباتات الطبيعية والصناعية التي ملأت زوايا

المكتب ويظهر من خلال الملصقات الموجودة عليها أنها هدايا حديثة، هذا بالإضافة إلى وجود جهاز تلفزيون حديث مع جهاز فيديو.

أحست بشيء من الطمأنينة لبساطة المكان ونظافته الأمر الذي أشعرها بالثقة والصدق بصاحب المكتب.

سألته:

مكتبك مختلف عن مكاتب الآخرين.. لماذا.. ؟

يمكنك أن تقولي ذلك.. لكن هل يختلف بالشكل أم بغيره..؟

بالشكل مبدئياً وأعتقد أنه يختلف عن غيره بالمضمون أيضاً.

على كل يا آنسة آمال أنا أردت منك أن تدخلي إلى مكتبي لأنك لم تدخليه من قبل ولا مرة قبل اليوم وأنت ربما تعتقدين أنني مثل غيري من المدراء أو أنني أوافق على ما يفعله مجلس الإدارة.

ـ الواقع أننا نرتاب بأعضاء مجلس الإدارة بشكل عام ولكن إذا كنا منصفين فإن هناك بعض الأعضاء الذين يتصفون بالنزاهة ولم يتلوثوا بإغراءات السلطة وبيروقراطية المكاتب.

ـ سنعمل على إلغاء القرار وأريد منك التعاون حتى نستطيع أن نضع حداً للمظالم التي يوقعها مجلس الإدارة على بعض العاملين ونحاول إنصاف المظلومين قدر المستطاع. ولهذا السبب أريد منك أن تقتربي أكثر من أعضاء مجلس الإدارة، كالمدير التجاري أو حتى حسن أفندي ونجعلهم يطمئنون نوعاً ما وبالتالي يخف حذرهم اتجاه الأشخاص الذين لا يرتاحون إليهم ونستطيع أن نصل إلى بعض الألاعيب التي يقومون بها.

ـ ماذا تقترح بالضبط...؟

ـ بعد يومين يوجد دعوة على العشاء سيحضرها أعضاء المجلس وبعض الأصدقاء وستكون وصال موجودة، وأنت تعلمين كم يودها المدير العام، وإذا كنت أنت موجودة تستطيعين أن تتعرفي على الكثير من الأشياء المفيدة.

ـ اتفقنا بشرط أن لا أتورط بشيء معهم..!

ـ وهو كذلك.

ـ شكراً لك، كنت أظن أن الجميع يشاركون فيما يجري لكن الحمد لله يبقى هناك أشخاص لا يقبلون الخطأ.

* * *

عادت آمال إلى مكتبها، استقبلها المستخدم عند باب القسم..

آنسة آمال.. أين كنت..؟

كنت في مكتب الأستاذ سامي، لماذا تسأل..؟

لقد بحثنا عنك، يوجد شخص يريد أن يراك..

دخلت مكتبها فوجدت شخصاً في الستين من عمره جالساً بانتظارها وما أن رآها حتى نهض واقفاً بشيء من التثاقل..

أنت الآنسة آمال..؟ بادرها الرجل بالسؤال وهو يرسم ابتسامة على فمه..

نظرت إليه، كانت سيمائه لا تزال تحتفظ ببقية من الشباب، فالوجه لا يخلو من الوسامة وقامته الفارعة لم تنحنِ بعد، وشعره خالطه الشيب، إلا أنه قد صُفف بعناية، بدا الوجه يعلوه الشحوب والعينان

غائرتان قليلاً، وقد تعمقت الأخاديد في وجهه بحيث يفكر الناظر إليه أن هذا الإنسان قد أبلى حديثاً من مرض ألمَّ به، يتضح ذلك من خلال بذلته التي يرتديها وتظهر أنها واسعة عليه بشكل ملفت للنظر.

- نعم، أنا آمال.. من تكون حضرتك .؟

- أنا والد خالد الساعدي..!

أشرق وجهها وبادرت بالترحيب.

- أهلاً وسهلاً.. تفضل اجلس، ثم قربت مقعداً وجلست قبالته..

- ما هي أخبار خالد..؟

- أخباره عندك.. لقد كتب لي أن آتي إليك إذا ما احتجت إلى شيء بخصوصه في المؤسسة.

- وأنا كتبت إليه أيضاً.. أخبرته عن آخر التطورات بخصوص وضعه ونحن هنا نتعاون مع بعض الأشخاص المحترمين كي نزيل الظلم الذي وقع على خالد وغيره إلا أن سفره قد أضعف موقفنا وأصبح مسألة الدفاع عنه ضعيفة، ولم نستطع الحؤول دون صدور القرار الذي يتضمن حجز الأموال المنقولة وغير المنقولة وإحالته إلى القضاء هو ورفاقه.

هذا القرار الذي أتعبني وسبب لي المرض لأنني أعرف خالداً وهذا ظلم واضح.

أي مرض..؟ هل أنت بخير يا عم..؟

الحمد لله يا آنسة.. عندما علمت بالقرار أصبت بأزمة قلبية حادة بقيت أياماً عدة في المستشفى بقسم العناية المشددة ومنذ مدة قليلة

أصبحت أخرج من المنزل فقط.

الآن كيف صحتك..؟

بخير أحمد الله، ولو لم يؤكد عليّ خالد برسالته أن أراك لما أتيت إلى هنا..

الحمد لله على السلامة، هوّن عليك، المهم أن تنتبه لصحتك وهذا الموضوع يمكن أن يحل على خير إن شاء الله..

ثم تتابع متسائلة..

ماذا تقترح يا عم أبو خالد أن نفعل..؟

أنا أتيت لكي أرى المدير العام وأكلمه بشأن خالد..

أنا كلمته من قبل لكن لا فائدة، لأنه هو من أراد هذه النتيجة وعمل جاهداً للوصول إلى هذا القرار..

أنا فكرت أن أقابله وأشرح له ظروفي وظروف ابني علّني أجد تفهماً لديه في مشكلتنا هذه..

كما تريد، وإذا أحببت الآن يمكننا أن نذهب إليه وأستطيع أن أدخل معك إلى مكتب المدير العام..

إنني أتيت من أجل ذلك...

بعد قليل كانا في مكتب سكرتيرة المدير العام الآنسة وصال..

أهلاً آمال، من هذا الذي معك..؟

إنه والد زميلنا خالد.

اتسعت عينا وصال دهشة وارتسمت ابتسامة سخرية على طرف فمها..

هكذا إذن.. والد خالد..؟ لا بأس ماذا تريد يا عم؟ وتوجهت بالسؤال إليه..

وقبل أن يجيب أجابت آمال:

يريد أن يقابل المدير العام بشأن موضوع ابنه..

على عيني لكن المدير العام مشغول الآن..

لقد أتى من قريته لهذا الغرض والرجل مريض لا يستطيع الانتظار طويلاً يمكنك أن تدخلينا على المدير العام دون انتظار..

قالت ذلك آمال ونظرت إلى وصال نظرة فيها شيء من التحدي..

نظرت وصال إلى آمال نظرة فيها شيء من الغنج وغمزت بعينها..

تكرمي يا آمال ومن تريدينه.

ثم أدارت ظهرها وتوجهت إلى مكتب المدير العام حيث غابت بضعة دقائق ثم عادت..

تفضل يا عم.. المدير العام بانتظارك..

دخلا إلى مكتب المدير العام حيث بادر أبو خالد بالسلام..

مرحباً يا جناب المدير..

أهلاً وسهلاً.. أنت والد خالد كما علمت.. أليس كذلك..؟

نعم يا أستاذ، أجابت آمال وأردفت.. لقد أتى من القرية وهو مريض لكي يراك بشأن موضوع ابنه..

نحن يا عم لقد ساعدنا ابنك خالد وهو زميلنا بكل ما نستطيع، لكن الأمر خرج من يدنا حيث أن التهمة ثابتة وأنت تعلم أن المسألة تتعلق بالمصلحة العامة وهذه المؤسسة مؤسستنا جميعاً وواجب أن نحافظ عليها

من العبث والضياع وإلا فإن مصيرها الانهيار.

أنا معك بكل ما قلته يا أستاذ، لكنني أحب أن أوضح لك شيئاً..

إنني لست صغيراً في السن، ولقد ساهمت في بناء هذا البلد على قدر طاقتي وعملت في سلك التعليم سنين طويلة ولم أعلم أولاد الناس إلا كل ما هو خير ومفيد لهم وللوطن.. فما بالك في تعليم أولادي..؟ وإنني أستغرب ما نُسب إلى ابني خالد من اتهامات أنا أعرف أن أخلاقه وتربيته تمنعانه من سلوك هذا السلوك الشاذ والغريب عن طبيعتنا ووطنيتنا..

أنت يا عم على عيني وعلى راسي.. لكن كل إنسان مسؤول عن تصرفاته، ليس بالضرورة أن يكون الابن بأخلاق أبيه.. أنا مثلاً متعلم وأحمل إجازة جامعية منذ سنين طويلة، ولقد أكملت دراستي بشق الأنفس نتيجة الحاجة، أما أولادي رغم أن كل شيء متوفر لهم فهم لم يكملوا تعليم المرحلة الثانوية..! وأنا لم أستطع أن أجعلهم ينجحوا في الدراسة..! فلا يصعب عليك إذا أخطأ ابنك خالد، فكل ابن آدم خطاء..

ثم أكمل والد خالد تتمة الحديث بشيء من الخشوع (وخير الخطاءين التوابين).

ـ يعني أنك لا تستطيع أن تعمل على إلغاء القرار الذي يتضمن إحالة خالد إلى القضاء ريثما تظهر الحقيقة ويكشف السارق ومن قام بالتزوير والتلاعب بالأوراق.

ـ أنا سأعمل جهدي في ذلك فكما أن خالد ابنك هو زميلنا أيضاً ويهمنا أن يخرج بالبراءة.

* * *

كانت السيارات تتسارى وراء بعضها البعض يغلب عليها اللون الأسود، تلمع أسطحتها بفعل الأضواء المنعكسة من بيت حسن أفندي، يترجل رجال ونساء متأنقون يتأبطون أذرعة بعضهم البعض وهم يصعدون الدرج المضاء بشكل باهر إلى الصالة المواجهة للمدخل حيث كان حسن أفندي في استقبال المدعوين، بينما يتولى خادم يلبس بذلة سوداء وربطة عنق حمراء إرشاد الضيوف إلى أماكن جلوسهم مراعياً المقامات الاجتماعية وأهمية الأشخاص المدعوين.

كان أعضاء المجلس يتصدرون القاعة مع بعض وكلاء الشركات الأجنبية ومجموعة من النساء المتأنقات اللواتي يرفلن بثياب الحرير وفراء الثعلب المتدلي فوق أكتافهن.

دارت الكؤوس وانتشت الرؤوس بتأثير الخمر الذي كان يسكبه الخدم بكرم زائد في أقداح المدعوين فيما كان الرقص يحتل وسط القاعة مفسحاً المجال للأجساد الغضة الريانة أن ترقص وترقص وتتخايل وتفرغ طاقاتها المختزنة في حركات رشيقة تهبط وتصعد مع الموسيقى المنبعثة من جهاز يقبع في زاوية القاعة بينما كانت النساء يتبارين في إظهار مهاراتهن الراقصة والتودد إلى رجال الأعمال والتقرب إليهم بأجسادهن وحرارة أنفاسهن ورائحة عطرهن النفاذة التي تنفذ إلى خياشيم الأنف فتزيد الرؤوس سكرة والعيون دوراناً.

اتخذ الأستاذ سامي مقعداً بعيداً عن وسط الصالون غير مكترث في الرقص الدائر، مكتفياً في مراقبة الحفل وهو يرتشف رشفات قليلة.. كأسه، متأملاً المدعوين وقد التقت عيناه بعيني آمال، غمز لها بعينه

لتنظر جهة اليسار حيث كان حسن أفندي يتحدث مع موظف المستودع ويشير له بيده إلى مكان ما.

استغربت آمال ماذا أتى بعهد إلى الحفل..؟

وهل من عادة حسن أفندي أن يدعوه..؟ وما هي علاقته به..؟

عهد هذا، الذي نجا من التحقيقات الجارية في المستودع بشأن قصة المواد التالفة لماذا يحرص المدير العام على حضوره لحفل ليس فيه عمل له، كما أنه ليس في مستوى المدعوين ربما له مهمات خاصة لا نعرفها .

كانت وصال بأبهى زينتها، تلبس فستاناً حريرياً أسوداً يلبس جسدها بشكل مفصل، يظهر تقاطيعه ويبرز فتنة الصدر بشكل لافت ويلتصق على عضلات البطن فيظهر طياتها ثم يعود لينزلق انزلاقاً أملس فوق الردفين فيظهر تكويرهما وجمالهما المتناسب مع الساقين وحذاء الكعب العالي الذي ترتديه يزيدها جمالاً وأنوثة عن ذي قبل عندما كانت تشاهد وهي منهمكة جيئة وذهاباً في عملها بالشركة.

مرت وصال عرضاً قرب آمال وقد ظهرت النشوة على وجهها الذي بدا أكثر حمرة وعينيها المعروقتين فسألت صديقتها بمرح:

هل تستمتعين بوقتك..؟

نوعاً ما.

ماذا تشربين..؟

عصير.

عصير.. هذا لا يكفي.. اشربي شيئاً من الكحول فهو يعدل المزاج.

أستطيع الاعتناء بنفسي.. اطمئني.

ثم مالت وصال على أذنها قليلاً وهمست:

لا تنصرفي مع المدعوين.. سنبقى هنا نكمل السهرة مع السيد حسن أفندي على نطاق ضيق.

أخبرت آمال السيد سامي بما طلبته منها وصال وسألته رأيه في ذلك.

إلى هذا الحد يكفي.. ينبغي أن تنصرفي مع المدعوين بلباقة حتى لا تثيري ارتيابهم.

في نهاية السهرة أخذ المدعوون يستعدون للمغادرة وأخذ يرتدي كل منهم معطفه ووضعت النساء الفراء الذي يرتدينه على أكتافهن، كذلك ارتدت آمال معطفها وهمت بالمغادرة، فبادرتها وصال:

إلى أين..؟

إلى البيت.

ماذا قلت لك.. ؟ ابقي.

لا أستطيع.. لم أخبر أهلي بذلك في المنزل.

ابقِ لا تخافي.. السيد حسن سيتصل بأهلك.

اعذريني لقد أطلت السهر ولم أعتد على ذلك.

كما تشائين، قالت وصال بشيء من اليأس.

مشى الأستاذ سامي مع آمال في أحد الشوارع الفرعية الذي بدا أنه جميل ومرتب وقد زين الرصيف اليميني منه بصفٍ من الأشجار المتناسقة، بينما كانت السيارات التي تعبره قليلة العدد نسبياً مما يفسح مجالاً

لحديث الأصدقاء الذين يرغبون ـِ نزهة آخر الليل على الرصيف.

ما هو انطباعك عن السهرة..؟

لم أعتقد أن وصال هي بهذا القدر من القرب من حسن أفندي.

هذا أولاً.. لقد اكتشفتِه بنفسك، ولهذا السبب ينبغي أن تحذري.

أحذر.. ممن..؟

من وصال.

هي صديقتي ونصارح بعضنا بالعديد من الأمور الخاصة.

هي صديقة حسن أفندي قبلك، وحسن يستغل صداقتها معك عن طريق معرفة آخر أنشطة خالد ورفاقه فهو يعلم العلاقة الخاصة التي تربطك بخالد... هل فهمت الآن..؟

نعم.. نعم.. حتى أحسب أنني ساذجة قليلاً.. لقد بدأت الصورة تتوضح إلى حدٍّ ما.

ماذا لاحظت أيضاً..؟

غير موضوع وصال..؟

عهد مثلاً..

نعم لاحظت وجوده ـِ السهرة ولقد استغربت ذلك.

ضعي هذا ـِ بالك، ينبغي على الإنسان أن يكون نبيهاً ـِ ملاحظته للأشياء، وبمقدار مستوى ذكائه يستطيع أن يكتشف ما هو موجود وراء بعض المظاهر البسيطة من أمور هامة، وبالدرجة الأولى من الذكاء.. هو ملاحظة الشيء غير المألوف، ويأتي بالدرجة الثانية السؤال عن ذلك.

إنك أستاذ بكل معنى الكلمة.

وأنت طالبة ذكية أيضاً.

الطالب يحتاج إلى الأستاذ كي يدله على الطريق.

الأستاذ يحتاج إلى الطالب كي يفرغ فيه معارفه، كالزارع يرش مائه على النبتة، يسقيها ويتعهدها بالرعاية حتى تصبح شجرة مثمرة.

أنت تطريني.

لا.. أنا أقول الواقع.

كانا قد وصلا إلى نهاية الشارع.. قالت له:

الآن وداعاً.. أستطيع أن أنصرف إلى بيتي.. لقد أصبح البيت قريباً.

يمكن أن أوصلك إلى البيت.

لا.. شكراً، الطريق منارة ولا يوجد ما يخيف.

إذن وداعاً.

- ٦ -

مضى يوم أمس بالكامل لم يستطع خالد أن يشاهد جمانة بسبب انشغاله في نقل أثاث بعض الصفوف إلى أماكن أخرى وإدخال أثاث جديد يراعى فيه المواصفات الحديثة.. أنهى عمله على وجه السرعة واتجه إلى غرفة جمانة فقد اشتاق إليها ويرغب بلقائها والحديث معها.

اقترب من الغرفة، سمع صوت جمانة وهي تزجر أحد الأشخاص بلهجة شديدة.. اقترب أكثر، عرف من خلال الصوت أنه الأستاذ زكار..! ماذا يريد..؟ ماذا يدور بينه وبين جمانة..؟

جمانة لماذا تغيرت..؟

كما قلت لك.. ما مضى قد مضى.

لكن لماذا..؟

هكذا.

والاتفاق الذي بيننا..؟

لا يوجد اتفاق.. لقد اتفقنا أن نترك الأمور للمستقبل.

يمكن لنا أن نتفاهم.

لا أعتقد يوجد ضرورة لذلك.

اقترح أن نلتقي اليوم.

لا داعي لذلك.

أنا أعلم ما هو السبب...؟ قال ذلك بيأس شاداً قبضته وهم بالخروج من الغرفة.

عندها قفل خالد عائداً ودخل إلى غرفة مجاورة لغرفة جمانة مفسحاً المجال أمام الأستاذ زكار كي يخرج في حرية ولا يعلم أنه قد سمع الحديث الذي دار بينهما.

شعر خالد بانقباض في نفسه... ماذا يوجد بين جمانة والأستاذ زكار.. هل هما على علاقة غرامية..؟ أم يوجد بينهما أشياء لا أعرفها.. على أية

حال ما سمعته اليوم يجعلني أكثر حذراً في علاقتي بجمانة.. قال لنفسه.

تحاشى المرور قرب مكتب جمانة ذلك النهار واقتصر تواجده على القسم الشرقي من المدرسة، حيث المطعم وأماكن استراحة الطلاب.

في المساء وبينما كان خالد يجلس على الكرسي قبالة باب مطعم الطلاب اقتربت منه جمانة وقالت له مبتسمة:

أين تخفي نفسك..؟

هنا في العمل.. أجاب بابتسامة خفيفة محاولاً النهوض للترحيب بها.

هل تعلم.. كنت أفكر بالنزول إلى عندك كي أراك؟

شكراً لك.

نظرت إليه وقد اتسعت عيناها مستغربة ردة فعله.

ما هذه اللهجة الرسمية..؟ أنا مشتاقة إليك.

وأنا أيضاً.. لكنني أحب الصراحة.

الصراحة..؟ وهل أنا غير صريحة معك..؟

نظر إليها ملياً وكأنه يكذبها وقال بلغة فيها شيء من التشكيك:

ربما..؟

أنت تكذبّني.. ؟ أنا لا أقبل هذه اللهجة في الحديث معي.. على كلٍ هذا المكان لا يناسب الحديث، أقترح أن نلتقي في نهاية الدوام.

ـ كما تشائين.

عند نهاية الدوام، كانت جمانة تحمل حقيبتها على كتفها وهي تشير إلى خالد بيدها من بعيد إلى أنها ذاهبة أمامه إلى المكان المعتاد على

طريق السيارات.

وصل خالد متأخراً قليلاً إلى الموعد، كانت جمانة ضجرة من الوقوف بانتظاره.

قد تأخرت عليّ.. كنت محرجة وأنا واقفة من سائقي السيارات.. كانت تقف معظم السيارات ويسألني السائقون إذا كنت أريد أن أصعد أم لا.

هذا لأنك جميلة.. ولو لم تكوني جميلة لما وقف لك أي سائق تاكسي..

- أنت تسخر من موقفي..؟

لا.. لست أسخر، هذه حقيقة سائقي السيارات.. على أي حال أنا أعتذر للتأخير، لقد اضطررت للاغتسال وتبديل ملابسي.

إلى أين تقترح أن نذهب.

ما رأيك أن نذهب إلى عند صديقي محسن في المطعم..؟

استقلا سيارة واتجها إلى المطعم وهناك نزلا ودخلا المطعم حيث لاحظهما محسن على الفور فبادر صديقه خالد بالمداعبة:

أهلاً.. أهلاً بالعريس.. لقد أصبح لي ثلاث سنوات وأنا هنا ولم أحظَ بعروس مثل التي معك يا خالد الساعدي؟

خفضت جمانة رأسها خجلاً.. وشكرت محسن على المجاملة.

شكراً لك يا محسن.

ثم تعانق الصديقان وتبادلا القبل.

أين تريد أن تجلس..؟

في المكان الذي تحب.. في الصالة تحت.. أم تصعد إلى الطابق العلوي حيث المنظر أجمل والحركة أقل..؟

نريد ركناً هادئاً.

صعدا إلى الطابق العلوي حيث إطلالته الغربية تكشف البحر المترامي وأشجار الصنوبر تشرئب بقممها المتماوجة عند حافة النافذة.

الوقت ظهراً.. وأكيد لم تتناولا غداءكما بعد.. قولا لي ماذا تريدان أن أغديكما..؟

اختر أنت الغداء المناسب.. لكن اجلب لنا زجاجتي بيرة قبلاً.

جلسا قبالة بعضهما البعض.. سددت نظراتها إليه. فكرت أن تمد يدها إلى يده وتضغط عليها إلا أنها تريثت وقالت:

نعم يا خالد.. ما هو الشيء الذي كذبت عليك به..؟

ما هي علاقتك بالأستاذ زكار..؟

فاجأها السؤال.. قالت متلعثمة:

مدير المدرسة..؟

نعم مدير المدرسة..

لماذا تسأل.. هل لاحظت شيئاً..؟

لا يهم.. أريد أن تصارحيني، ماذا يوجد بينك وبينه؟

لا أعرف ما الذي يدفعك لأن تسأل هكذا سؤال.. قد يجوز أنك سمعت شيئاً.. لا أعرف.. وإذا كان لا بد أن تعرف فإني أخبرك أن الأستاذ زكار قد طلبني للزواج.

وأنت ماذا كان موقفك.

تركت الأمر للدراسة في المستقبل قد نتفق وقد نختلف.

إلى أي مدى وصلت العلاقة بينكما؟

لا يوجد علاقة.

الذي سمعته عن حديثكما يدل على وجود علاقة بينكما..

متى سمعت..؟

يوم أمس في غرفة مكتبك.

إذن أنت سمعت الحديث الذي دار بيننا..؟

لم يكن ذلك مقصوداً، كنت ذاهباً إليك وقد سمعت حديثكما صدفة.

ماذا فهمت منه..؟

فهمت أنه يوجد علاقة بينكما.. لا أعلم ما هي..؟ لكنني أسأل هل وعدته بشيء..؟

كنت قد وافقت مبدئياً على العلاقة بيننا إلى أن..

إلى أن ماذا..؟

إلى أن وصلت أنت تغير الوضع.

أنا.. هل تعنين أنني أنا سبب في عدم استمرار علاقتك بالأستاذ زكار..؟

يمكن أن تعتبر ذلك سبباً قوياً، أما السبب الثاني فإنني لم أنجذب إليه عاطفياً كفاية مع أنه مستقر مادياً واجتماعياً.

إذن لهذا السبب أشعر أنه يعاملني بجفاء..؟

قد يكون ذلك سبباً وجيهاً بالنسبة له، فهو يغار بشكل كبير، أخذ يغضب مني عندما تبدلت ناحيته دون أن يعرف السبب، وعندما شك أنه يمكن أن تكون أنت السبب طار صوابه.

هل تعلمين..؟ أفكر أن أستأجر منزلاً وأسكن خارج المدرسة.

هذا أفضل بالنسبة للقاءاتنا، لكنه مكلف مادياً بالنسبة إليك.

لا خيار أمامنا، إقامتي الدائمة في المدرسة تثير حساسيته وتجعلني لا أرتاح.

أستطيع مادياً أن أساعدك بتكاليف المنزل، لكن ألا ينبغي لك أن تزورنا في المنزل.

أود ذلك.. لكن الوقت ما زال مبكراً.

ما زالت تراودك بعض الشكوك.. أليس كذلك..

ليست شكوكاً من ناحيتك، لكن ظروفي لم تستقم بعد كي أتعرف على أهلك وأتخذ قراراً مهماً في هذا المجال.

إني أتفهم ذلك فلا تنزعج.. كان خالد قد سرح بخياله بعيداً عن جمانة، لاحظت ذلك، سألته:

بماذا تفكر ؟

أفكر بالأستاذ زكار.. يقولون إن زوجته السابقة جميلة، هل رأيتها..؟

لا.. لكنهم يؤكدون أن جمالها خارق.

لماذا تركها؟

لا أعلم.

هل كان يحبها.

لا أعلم.. لم يقل لي ذلك، لكنه لم يقل إنه يكرهها.

هذه نقطة مهمة، ما دام لم يصرح بأنه يكرهها أو أنه تركها لأنه لا يحبها، فهذا يعني إنه يحبها.

إذن لماذا تركها..؟

أحياناً يحدث للإنسان إذا كان يحب شيئاً ما، فإنه يحرص على أن لا يفقده، وهذا الحرص والاهتمام الزائد عن اللزوم يؤدي غالباً إلى عكس الهدف المرجو منه، وإذا كان الذي نحبه إنساناً فإننا ينبغي أن نعامله كالعصفور، لا نضغط عليه كي لا يختنق ولا نفتح يدنا كثيراً كي لا يفلت من يدنا..!

أرى أن هذا الحديث فلسفي يكشف عن عمق ثقافتك وهذا ما لفت نظري إليك في البداية.

إذا كان هذا ما يسرك فإنني أيضاً مسرور لأن هذا الجانب هو ما لفت نظرك إلي، لأن صداقة الفكر هي أقوى وأرقى من أشكال الصداقات الأخرى.

حتى علاقة الحب بين الرجل والمرأة أيضاً..؟

العلاقة التي تنشأ بين الرجل والمرأة يختلف مضمونها عن مضمون العلاقة التي تقوم على الصداقة..! ففي علاقة الرجل بالمرأة كما يقول المثل في الحب كما في الحرب، لا ينفع سوى التحام الجسد بالجسد..!

لمن هذا المثل..؟

لم أعد أذكره لكنني أحفظه لأنه عين الحقيقة.

هذا صحيح، لكن العوامل الأخرى مثل الإعجاب الفكري بالدرجة الأولى والإعجاب بالشكل يلعب دوراً أساسياً في تعلق هذا الإنسان في ذاك أو غيره من البشر.

إنني سعيد في هذا الحوار الذي تشاركيني فيه رأيك.

وأنا كذلك.. وأضيف تتمة لحديثنا، إن العوامل النفسية والتقارب والتمازج النفسي له دور مهم في نشوء الحب بين الرجل والمرأة والصداقة بين البشر بصورة عامة. أحياناً قد ترى إنساناً ما يبعث فيك الرغبة كي تسعى للتعرف عليه والتواصل معه، وهذا برأيي استعداد أولي للحب والذي علمته أن الأستاذ زكار كان يحب زوجته ويغار عليها، ولشدة حرصه عليها وغيرته أفلت العصفور من يده وتركته زوجته في النهاية لأنها لم تشعر معه بالحرية التي ينبغي أن يوفرها لها، وهذا النوع من الرجال يتصف بالنزقية في علاقته بالأشخاص المنافسين له في مجال العمل، وإذا كانت المنافسة في مجال الحب فهو ليس من النوع الديمقراطي ولا يفسح مجال المرور للأفضل، فهو يميل للامتلاك وفرض رأيه في المسألة التي يريد دون مناقشة.

ـ هل هذا التحليل لشخصية الأستاذ زكار هو الذي جعلك لا تستمرين في علاقتك معه..؟

هذا جانب مهم، والجانب الآخر هو.. نظرت إليه هو أنت.. ! ثم ضحكت وقالت.. على كل لقد تأخر الوقت وينبغي أن تذهب، فإنني لم أخبرهم في المنزل أنني سأتأخر.

أتى محسن إلى طاولتهما وهما يستعدان للذهاب وقال مداعباً:

ها.. هل اتفق الشريكان على بناء العش أم لا..؟

في طريق الاتفاق.. وأنت أيها النمس متى سيكون لك شريك في بناء عشك..؟

عشي الآن في المطبخ.. وانفجر ضاحكاً هو وصديقه خالد.

في الطريق سألته:

ماذا يقصد عندما قال: عشي الآن في المطبخ..؟

هذه مزحة.

أعرف أنها مزحة، لكن لماذا سمى المطبخ..؟

أنتنَّ النساء حشريات، وأنفكن يشم الرائحة عن بعد وإذا كان لا بد أن تعرفي قصة المطبخ بالنسبة إلى محسن فها هي:

لقد ذهب محسن ذات يوم إلى إحدى السهرات هو وصاحب المطعم الذي يشتغل فيه، كانت السهرة فيها العديد من الرجال والنساء العرب والأجانب وحدث أن لفت محسن بقامته الممشوقة وسيمائه الشرقية نظرات إحدى السيدات الأجنبيات التي شرعت في مغازلته حيث بادلها الغزل بدوره، لكنها كانت مهتاجة بشكل واضح إما بفعل السكر أو أن رغبتها في ممارسة الجنس كانت أقوى من مداراة الوضع والمكان، أخذت تسحب محسن اتجاه المطبخ، وهو على شدة رغبته فيها كان أكثر حياءً وخجلاً وحسبما قال لي: عندما دخلنا المطبخ قامت هي بإغلاق الباب فما كان مني ساعتئذٍ إلا أن وضعتها على الطاولة التي أسندت الباب بها

وقمت بعملي وأنا أقول لها أنت أرجل من مين يا...).

ضحكت جمانة لحديث خالد وعلقت:

أنتم الرجال بوهيميون، عندما تتحرك غرائزكم الجنسية لا تعودون تبالون بشيء.. لا بالمكان ولا بالزمان، همكم قضاء حاجتكم والباقي لا يهم.

المرأة هي التي تدفع الرجل إلى هذا السلوك.

لو كنت أنت مكان محسن، هل تتصرف بنفس الأسلوب معها في المطبخ وعلى الطاولة..؟

ربما كنت أفعل ذلك..؟

أنتما متشابهان في هذه المسألة، وربما تتشابهان في أمور أخرى أيضاً.

ها قد وصلنا مفرق المدرسة، الآن وداعاً.

هكذا دون أن تقبلني.

هنا..؟

نعم.. بشرط ألا تفعل كما فعل صديقك محسن.

قبل يدها ونزل من السيارة وانحدر في الطريق المؤدي إلى المدرسة حيث كانت الشمس قد سقطت وراء الأشجار التي تعلو الهضبة المشرفة على الطريق وقد ارتسمت ظلال الهضبة كشبح أسود قد غطى الوهدة المنخفضة تحت الطريق بينما كانت السيارات المارة تضيء مصابيحها إيذاناً بحلول الظلام وانسحاب آخر أشعة النهار.

كان ثمة رجلان يقفان جانب الطريق عندما مر خالد بقربهما، ناداه أحدهما:

وين رايح يا قبضاي..؟

التفت إليهما وتوقف مستفهما:

تخاطبني أنا..؟

نعم أنت، واقترب الرجلان منه.

ماذا تريدان..؟

لازم تعرف قيمتك ولا ترفع رأسك لفوق كثير..

ماذا تقول..؟

وقبل أن يكمل كلامه بادره أحدهما بلكمة على وجهه انسحب خالد إلى الخلف بضع خطوات محاولاً التقاط حجراً وعصا للدفاع عن نفسه عندما تأكد أن الرجلين لا يريدان خيراً به.. تابع الرجلان هجومهما، ضربه أحدهما على ظهره محاولاً إيقاعه على الأرض، إلا أن خالد تمكن من التقاط عصا كانت ملقاة على الأرض وضرب أحدهما ضربة جعلته يترنح مبتعداً عن خالد كي لا يصاب بضربة أخرى.

استعاد خالد توازنه واستعد للهجوم على الرجل الثاني بعصاه، فر الرجلان من ساحة المعركة بعد أن تسلح خالد بعصا يمكن أن تلحق الأذى بهما.

مسح الدم الذي خرج من بين أسنانه وأنفه محاولاً التقاط أنفاسه من هذا الهجوم المباغت الذي فاجأه دون سابق إنذار.. ظل يراقب الرجلين وهما يصعدان الطريق الفرعي المؤدي إلى طريق عام للسيارات، كان عقله يعمل بسرعة محاولاً تفسير ما جرى متسائلاً عن هوية المهاجمين..؟

ماذا يريدان.. من هما..؟ إنهما لا يريدان السرقة كما يبدو.. ماذا يقصدان..؟ من حرضهما.. ماذا يقصد بكلامه.. لازم تعرف قيمتك..؟ لا ترفع رأسك لفوق كثير..؟

تابع طريقه سائراً نحو المدرسة وهو ما يزال يحمل العصا بيده تحسباً للطوارئ حيث ألقاها حين وصل إلى المدخل الرئيسي ومضى إلى غرفته وقام بغسل وجهه وشعره ثم استلقى على السرير وما زال ذهنه يعمل محاولاً معرفة هوية هذين الرجلين اللذين هاجماه دونما سبب.

كان نومه قلقاً جراء الألم الذي ينبعث بين الفينة والأخرى من أحد أسنانه بشكل ومضات سريعة وعلى فترات متقطعة يقطع معه النوم الذي ما يكاد يكون قد غط فيه. ولسبب غير معروف تراءى له حسن أفندي وهو يلبس مريولاً أبيض مثل مراييل أطباء الأسنان وهو يحمل جهازاً بيده أشبه بجهاز فك البراغي يقترب مبتسماً محاولاً أن يفتح فمه لاقتلاع ضرسٍ منه، وكانت صورة آمال تقبع خلف صورة حسن أفندي يغشيها ضباب رمادي يخفي بعض أقسام وجهها، إلا أن وجهها كان عبوساً ويدها تحاول أن تمتد لتمسك بيد حسن أفندي وتمنعه من الوصول إلى فم خالد.. كان خائفاً محاولاً إبعاد الضوء الذي يحمله حسن أفندي وهو يقترب ليضع المفك في فمه بوجهه الساخر الصامت، استفاق من النوم وما زال اللاوعي يسيطر على كلماته.

لا.. لا.. وصوته كان قد بح وجف ريقه. فتح عينيه، كان مصباح الكهرباء معلق في أعلى السقف وقد بهر عينيه بينما كان باب الغرفة ما زال مفتوحاً قليلاً بغير إسراف وقد خيم الصمت على الردهة، جلس في

السرير، أحس بألم في ظهره وبنوع من الخدر في لثته وزاوية فمه، تذكر ما حصل معه ليلة أمس، كانت الضربة قد تركت آثاراً على فمه والجانب الأيسر من وجهه بشكل واضح لكن لا بأس.. الأسنان أعتقد ما زالت سليمة.

نهض من السرير وقام بغسل وجهه ورأسه ثم صعد إلى الطابق العلوي حيث الطلاب وإدارة المدرسة..

ما هذا.. من ضربك..؟ سأله رفيقه يحيى.

لقد تشاجرت مع لصين يوم أمس.

لصان.. أين..؟

عند مفرق المدرسة، على الشارع العام.

علمت جمانة أن خالد قد تعرض لاعتداء لصين يوم أمس.. أرسلت وراءه أحد المستخدمين حيث حضر خالد إلى مكتب جمانة بعد قليل من الوقت.

صباح الخير جمانة..

صباح النور.. اقترب.. أرني..

اقتربت منه ووضعت يدها على وجهه فوق مكان الضربة .

إنها ضربة شديدة.. كيف حدث ذلك.. أين هاجمك هذان اللصان..؟

إنهما ليسا لصان.

ما هما إذن..؟

لا أعرف.

كيف عرفت إذن إنهما ليسا لصان..؟ الشائعة في المدرسة تقول إن من هاجمك هما لصان..!

أنا قلت ذلك .

ولماذا تقول لي الآن أنهما ليسا لصين..

لأنهما ليسا فعلاً لصين.

ما تفسير ذلك.. هل دار حديث بينكما..؟

لم يدر حديث بمعنى الحديث، بل قاما بالهجوم عليّ وباشرا الضرب وهما يقولان:

لازم تعرف قيمتك.. لا ترفع راسك لفوق كثير.

هل عرفتهما.. أو أحدهما على الأقل..؟

لا.. لم أرهما من قبل.

غريب.. من هذان الرجلان..؟

أحسب أنه يمكن أن يكونا من طرف الأستاذ زكار .

معقول أن يبلغ الأمر به إلى حد إرسال أشخاص من أجل ضربك..؟

لا أعرف.

ثم أضافت جمانة بعد تفكير.

يمكن أن يكون من قبل..؟

من قبل من..؟

وتابعت حديثها مع نفسها :

لا .. لا أعتقد أنه يمكن أن يتصرف هكذا.

من هو الذي تتحدثين عنه..؟

زوجي

زوجك..؟ هو في أميركا..!

لقد عاد.

متى..؟

منذ شهر.

ماذا يريد.. ألم تنتهِ علاقتكما..؟

لم تنتهِ رسمياً، ولقد أرسل إليّ في البيت يريد أن يراني.

لماذا لم تقولي لي ذلك..؟

لم أجد ذلك مناسباً وهو بالنسبة لي لم يعد مهماً فهو من الماضي الذي أحاول أن أنساه.

ماذا تقترحين أن أفعل..؟

كن على حذر وحاول أن تستأجر منزلاً خارج المدرسة في أقرب وقت ممكن، وأنا سأحاول أن أتقصى عن الأمر بوسائلي الخاصة.

* * *

كان زوج جمانة قد عاد ذات ليلة إلى بيته في أميركا ، وقد أمضى ردحاً من الوقت من تلك الليلة في بيت صديقته الأميركية شيرين باعتباره الأقرب إلى المكان الذي يسهران فيه ، ودونما كلفة قامت بخلع ملابسها

كاملة ومضت إلى السرير باستقامة المحارب، فهي مزهوة بجسدها ولا تحاول إخفاء أي جزء فيه، هي من أنصار الفن الإغريقي الذي يتغنى بجمال الجسد عندما يكون في أجمل صورة.. وعلى هذا فهي لم تمانع عندما استوقفها أحد الفنانين الهواة في الشارع وطلب منها أن تتوقف للحظات حتى يتمكن من أن يصنع لها رسماً على طبق من الخزف، بل لم تمانع عندما طلب منها ذلك الفنان أن تأتي إذا أحبت إلى الاستديو الخاص به لرسم لوحة عارية..! بقيا ساعة في السرير، كانت شيرين تتقلب مثل الأفعى مظهرة براعة وثقة في النفس.. أين منها المرأة الشرقية التي اعتادت أن تمارس الحب دون أضواء، وحتى جسدها تحاول أن تخفي منه ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً. إن جرأة وصراحة المرأة الغربية تستهويه، فهي صريحة وواضحة، تطلب الحب إذا أرادت ولا ترى في ذلك عيباً أو خدشاً للحياء، فهي توفر عليه عناء الركض وراءها وأن تكون المبادرة منه دائماً، فهي شريكة بكل معنى الكلمة وتؤدي واجبها بما تقتضيه الشراكة، والمرأة الشرقية مختلفة في مشاركتها العاطفية وبأسلوب التعبير عن تلك العاطفة، فهي لا تعبر صراحة عما يجول في خاطرها ولا تركض بعيداً إلى لقاء الحبيب، لكنها تطلق سهاماً من الرائحة والعطور الممزوجة بالبهارات الشرقية المنبت تجذب الرجل إليها كما يجذب صحن الحلوى النحل إليه. وعلى هذا.. فإن رائحة المرأة الشرقية تعلق في مسام جلد الرجل كما تعلق الرائحة النفاذة في الثياب، فلا يستطيع الإنسان منها فكاكاً.. كانت صورة جمانة ورائحة جسدها قد قفزا إلى حقل الرؤية لديه، أخذ يفكر فيها على نحو يغمره الشوق والحنين متسائلاً:

لماذا تركتها تذهب..؟ ألم تحاول هي إسعادي..؟ ثم يهز رأسه بقناعة موافقة.. إنها تحمل مواصفات المرأة بكل معنى الكلمة..!

وعادت إليه غيرته الشرقية على زوجته الهاجرة نوعاً عن سائر النساء اللواتي عرفهن فوجد نفسه مدفوعاً إلى مواصلة التفكير في كيفية إعادة جسور العلاقة بينهما وهذا أمر لا يتم بالمراسلة، فقرر أن يسافر إلى الوطن.. وهناك يقوم بالاعتذار إليها عن كل ممارساته وإهماله لها علّه ينجح في إعادتها إليه وتعود معه إلى أميركا يواصلان حياتهما على أساس جديد.

إلا أن الهاتف الأول الذي حاول عبره أن يتحدث مع جمانة بعد عودته لم تستجب له، وعندما كرر الاتصال وسمعت صوته لم تسمح له بالحديث بل أغلقت السماعة في وجهه.

فكر.. إنها شرقية بمعنى الكلمة.. لم تسألني حتى من أين أتكلم.. من أميركا.. أو من هنا..؟ ألهذه الدرجة هي متألمة مني..؟

فكر في أن ينتظرها عند مفرق أحد الطرق وهي عائدة من عملها ويحاول أن يتحدث إليها مباشرة.. ربما يستطيع أن يكسر حدة هذه الجفوة في التعامل معه ، .. إلا أنها صدته حين حياها.

مرحباً جمانة.

ابتعد عن طريقي.

ضحك لصدها محاولاً تليين لهجتها وتذكيرها بالأيام القديمة.

لم أدللك في السابق..؟ من حقك أن تتدللي الآن..!

ابتعد ولا أريد أن أتحدث معك.

تمهلي يا جمانة.. أنا ما زلت زوجك وأريد أن أكلمك.

كنت زوجي.

وما زلت.. فأنا لم أطلق بعد.

لقد فعلت ما هو أقسى من الطلاق.

إني أعترف لك.. لكن اسمحي لي أن أشرح وجهة نظري.

لا داعي لذلك، وأرجوك لا تقف في طريقي ثانية.

توقف مكانه عندما استمرت في صده مستغرباً هذا الرفض ناظراً إليها وهي تتابع سيرها متسائلاً عن سبب هذا الرفض الجازم.. سأعرف. قال في نفسه.

أما جمانة فقد شعرت أنها قد تجاوزت المقدار الذي ترفض الحوار ولم تفسح المجال لنوع من الصلة ولو من باب الاحتيال علّها تعرف شيئاً عن هوية الرجلين الذين قاما بالاعتداء على حبيبها.. أو تعرف هل هو وراء ذلك الاعتداء..؟

فكرت وهي في البيت في أسلوب يعيد نوعاً من الصلة بينهما أسلوب لا يجعلها تتخلى به عن كبريائها ولا تشعره بأنها راغبة في العودة إليه، فهي بحاجة إلى شعرة معاوية.. كما يقولون أو أنها بحاجة إلى أن تتفهم العلاقة الزوجية على الطريقة الغربية.. وذلك وفق مبدأ الشراكة الذي يحتّم على الشريكين أن يتحاورا ويتجادلا، ويمكن أن يختلفا، لكن ذلك لا يمنعها من اللقاء.. فكما يقول المثل إن الخلاف في الرأي لا يفسد للود قضية.

* * * * * * *

الفصل الثاني

- ١ -

كانت وصال تقدم الحب لحسن أفندي بشكل وجبات، وكان هو يبادلها وجبات الحب بوجبات متنوعة أخرى.. منها السفر إلى الخارج الذي تعلّق شغاف قلب وصال به خاصة إذا كان إلى بلدٍ أوروبي. وقد وعدها في سفرةٍ إلى إيطاليا التي انتظرتها طويلاً.. وهذا حلمها قد تحقق وها هما قد وصلا إلى روما.. هو للتفاوض مع أحد البنوك التجارية الذي له علاقة مع المؤسسة ويوجد بينهما مبالغ حسابية ينبغي تسويتها، وهي التي رافقته في السفر كسكرتيرة شخصية له، هذا بالإضافة إلى المدير المالي في المؤسسة، راق لها أن تكون الإقامة في فندق اكسيلسيور في طراز بنائه القديم الذي يعود إلى أوائل القرن العشرين الذي تغطي أرضية حجراته وردهاته مجموعة من السجاد الفاخر التي يغلب على ألوانها اللونين الأحمر

والأبـيض. أمـا لبـاس الخـدم الـذين يقفـون عنـد بوابـة الفنـدق وفي ردهـة الاسـتقبال في ملابـسهم المميـزة تحـسبهم أنهـم أسـياد وقـورون لا خـداماً عـاديين. كـان منظـرهم وهـم يحملـون الحقائـب المحزومـة جيـداً بالعربـات الخاصة إلى باب المصعد للصعود بها إلى الطوابق والغرف المخصصة يوحي لك بجودة الخدمة في عاصمة أوروبيـة عريقـة.. اعتـادت أن تـستقبل ملايـين السائحين من مختلف أنحاء العالم وبعشرات اللغات واللهجات.

إنها روما.. أو بالأحرى (ماما روما) هو عنوان فيلم قديم كانت وصال قد حـضرته في إحـدى صـالات الـسينما ، إن كـل المـدن الكـبيرة هـي أمهـات، أمهات لشعوبها ، لبناتها الشريفات والساقطات، لأبنائهـا الطيـبين والأشـرار ، هـكذا هو قلب الأم يتحمل الجميع ويقف على مسافة واحدة من الجميـع فـلا يحب الأبيض لأنه أبيضٌ ولا يكـره الفقير لأنه فقير.

كـان بنـاء الفنـدق يطـل علـى العاصـمة بمتاحفهـا التاريخيـة وقبـة مبنـى الفاتيكـان وكنـسية القـديس بطـرس في قلـب رومـا ، بالإضـافة إلى مبنـى الكلسيوم الـشهير الـذي مـا زال شـاهداً علـى أمجـاد رومـا عنـدما كانـت سيدة العالم لقرون عديدة.

كانت الغرفة الـتي تم حجزهـا لوصـال تقـع في نفس الطـابق الـذي ينـزل فيـه الـسيد حسن أفنـدي، بينمـا تم حجـز غرفـة للمـدير المـالي في طـابق آخـر وذلك لتسهيل مسألة انتقال وصال إلى مكان إقامة حسن أفندي أو العكس.

لقد انبهرت بفخامة الفندق وأثاث الغرفة التي نزلت بها كـان الـسرير وثـيراً يقابلـه تواليـت نـسائي بمـرآة طويلـة يحـيط بهـا إطـار مـن الخـشب المزخرف بشكل رائع إلى جانـب خزانـة ملابـس من الخـشب المحفـور الـتي

ملئت بالمناشف والبياضات والملاءات النظيفة.

أما الحمام الذي صمم فيه حوض الاستحمام بشكل بيضوي ومن الرخام ذي اللون الفيروزي فقد شكل مع المغسلة القائمة وأرضية الحمام مثل صدفة جميلة في قاع البحر.

فتحت باب الشرفة الملحقة بالغرفة وخرجت إليها لتطل على منظر روما من هذا الموقع الذي ارتسم أمامها.. نهر التيبر يجري بمياهه الخضراء يقسم العاصمة يتعرج منسلاً تحت الجسور العديدة المرتمية فوقه بين ضفيته.

حاولت أن تستعيد من ذاكرتها بعض ما علق من صور روما التي أحرقها الإمبراطور نيرون.. فكرت بشيء من الاستغراب.. كيف يتسنى لعاصمة جملية في هذا الشكل أن تنجب إمبراطوراً شبه مجنون تتوجه على عرشها ويقوم بإحراقها..؟ ألم يكن عند الرومان من الرجال العظام ذوي الحكمة ممن يستطيعون منع مثل هذه النزوة المدمرة للبشر وللتاريخ..؟

كانت مستغرقة في أفكارها ، لا تحس بشيء من حولها وتتمنى أن تدوم تلك اللحظات الجميلة التي بعثت في نفسها رقة وعذوبة وسلاماً وحباً للخير لم تعرفه سابقاً ، كذلك أحست أن أفكارها أضحت سامية ورزينة وأنه ينبغي على الإنسان أن يتحرك وفق تلك المبادئ والأفكار الرزينة الخيرة.

أيقظها صوت حسن أفندي من أفكارها السارحة وهو يناديها..

ها.. ها.. نحن الآن في روما، واقترب منها محاولاً ضمها شعرت بانزعاج لهذا الاقتحام المفاجئ الذي قطع تداعي أفكارها العذبة التي تراودها، استدارت نحوه..

نعم في روما..!

أترين كم هي جميلة..؟

جداً.

وقفزت إلى ذهنها فكرة دون أن تعبر عنها صراحة لو كان حسن أفندي هو من أحبه لاشتهيت أن يضمني الآن إلى صدره وأتبادل وإياه القبل على هذه الشرفة الجميلة ونسجل ذكرياتنا قرب نهر التيبر.

ما بك..؟

لا شيء.. فقط مجرد أفكار، أحسب أن الإنسان مسير لا مخير، فأنا لم أكن أحلم يوماً أن أزور روما..! وأن أحظى في مثل هذه الحفاوة، أو أن أنعم في مثل هذا الترف..

كله يهون لأجلك يا حبيبتي، أنا والنقود وكل ما تطلبين، فقط دعي حبل الوصال ممدوداً بيننا، ثم أضاف ارتاحي الآن واستعدي في المساء للسهر في مربع ليلي لم تشاهدي مثله.

في الساعة التاسعة ليلاً كان حسن أفندي يتصل بوصال في غرفتها طالباً منها النزول إلى صالون الفندق كي يذهبوا إلى السهرة.

لبست ثوباً حريرياً أسود اللون يظهر جمال كتفيها وأبطيها ويظهر جزءاً بارزاً من الصدر.

كان حسن في انتظارها في الصالون مع المدير المالي عندما أقبلت.

ها الله.. ها الله.. ما هذا..؟ قال وهو ينهض لاستقبالها وقد علا الإشراق وجهه وزاد في بريق عينيه.

كل هذا بفضل خيرك، أجابت على استحياء.

ماذا تشربين.. ليمون..؟

نعم..

بعد دقائق أطلت امرأة من باب الصالون المؤدي إلى مكتب الاستعلامات وأخذت تنظر مجيلة الطرف في أرجاء الصالون.

سيرينا.. نهض المدير المالي لاستقبالها متحدثاً بالإيطالية تبادلا القبل ومن ثم جذبها من يدها إلى الطاولة التي تجلس عليها وصال.

نظرت إليها بعد أن ردت على تحيتها الرقيقة وجدتها جميلة جداً ذات قوام ممشوق لكنه ممتلئ تظهر عليها سمات الرقي كما تبدو للعين فهي ليست من النوع المستهتر، إنها تدعو للإعجاب.

اقتربت من أذن حسن أفندي وسألته بهمس:

من أين يعرف هذه المرأة الجميلة..؟

هذه صديقته منذ زمن.. إنه يلتقي بها عندما يأتي إلى إيطاليا.. وسهرتنا تحتاج إلى أن يكون إلى جانب الرجل امرأة في هذا الشكل.. ابتسم ثم يتابع.. أليس كذلك..؟

لم أكن أظن أنه قادر على إقامة علاقة مع هكذا امرأة.

لماذا..؟ إنه ما زال شاباً ويتمتع بالقوة، ثم أن المال يا حبيبتي يغري ويجعل من الممتنع سهلاً..!

هل هذا ينطبق عليّ أنا..؟

لا.. إننا نحب بعضنا.. أليس كذلك.. ؟ وما أقدمه أنا لك هو عربون محبة وليس لها أي تفسير آخر.

كانت السهرة في أحد المطاعم الفخمة وقد شربت وصال من النبيذ الأحمر الذي تفنن النادل في فتح زجاجته أمام الحضور، ومن ثم لفّ القسم العلوي من الزجاجة بمنديل أبيض نظيف بعد أن مسح فوهتها بطرف المنديل لإزالة أية نثرات تكون قد علقت من سدادة الفلين، ومن ثم صب قليلاً في قدح وصال وكمية مماثلة في قدح سيرينا وطلب منهما أن يتذوقا النبيذ.

رقصت وصال مع حسن أفندي حتى شبعت ودارت بها حلبة الرقص كما دار الرأس بفعل النبيذ اللذيذ الذي رشفت منه بشراهة تلك الليلة وهي تشعر بالانتشاء بفعل جو السهر وحرارة الرقص الذي قام به الساهرون. كذلك رقصت سيرينا هي وصديقها إلى ما بعد منتصف الليل حيث قاما بالاستئذان بعدها للانصراف وقضاء ليلتهما في بيت سيرينا باعتبار أن يوم غد هو عطلة ويستطيعان أن يتصرفا براحتهما.

استيقظت وصال بعد ليلة قضتها في السرير مع حسن أفندي كانت خلالها نصف واعية ولم تعد تذكر من ليلتهما الماضية سوى وجه النادل الذي كان يحرص على ملء الكأس من النبيذ الريان ويد حسن أفندي وهي تحتضنها وتجذبها إليه بقوة واشتهاء، ولون عينيه الحمراوين الذين تعتمهما السكر وهما تنظران إليها بشبقٍ نهم وصوت أنفاسه المتقطعة وهو يحاول أن يقبلها بفمٍ تهيأ لها أنه كان يسيل لعابه عندما ينحني عليها ويقبل فمها وعنقها.

رفعت الملاءة عن جسمها محاولة النهوض، إلا أن يد حسن أفندي أرجعتها إليه وضمها إلى صدره وهو يقبلها من كتفها.

صباح الخير.. هل استمتعت بليلتك..؟

المهم أن تكون أنت قد استمتعت.

جداً.. ولم أحظَ بليلة مثل ليلة البارحة التي قضيتها معك.

* * *

أحضرت وصال هدية لآمال معها من إيطاليا وقدمتها لها بكل ود وقبلتها من وجنتها.

استقبلت آمال الهدية ببرود وكلمتها بلغة لا تحوي الكثير من المودة.

لا داعي لذلك، قدميها لغيري.

أنت صديقتي يا آمال، لماذا تعاملينني دائماً بروح الشك.

أنت صديقة غيري قبلي.

ربما ولكنني أكن لك كل الاحترام.

وبالفعل لقد كانت وصال تكن الاحترام لآمال ولسبب ما تشعر بالعطف نحوها وربما كانت معجبة باستقامتها وحرصها على أن تنأى بنفسها عما يسيء إليها، ربما معرفتها بالمكيدة المدبرة لصديق آمال ورفاقه والظلم اللاحق بهم يجعل قلب وصال يرق لحال صديقتها فتعاملها برقة أكثر من المعتاد فقد كانت وصال ترى في أسلوب تعاملها مع الرؤساء أنه الأسلوب الأفضل والأذكى الذي يمهد الطريق للوصول إلى ذرىً عالية في المراتب الوظيفية، إلا أن هذا الوصول له ثمن من كرامة الشخص وحريته وحقه في أن تكون له شخصيته المستقلة، هي تحظى بالكثير من المميزات لدى مجلس الإدارة وبالأخص لدى رئيس المجلس

وتنال العديد من المكاسب والمتع التي يوفرها لها قربها من مراكز القرار إلا أنها تحسد آمال على استقلاليتها واستغنائها عن العديد من المباهج التي سعت ويسعى الآخرون للوصول إليها.

آمال تربطها علاقة حب مع صديقها خالد الساعدي وهي مخلصة له رغم ما يشاع من ألسنة السوء عن تقارب بينها وبين السيد سامي وملازمتها إياه.

أما هي المحسوبة على مجلس الإدارة، فلا تستطيع أن تسمي علاقتها برئيس المجلس علاقة حب.. هي علاقة غرائزية ومصلحة مادية ولا ترتقي إلى علاقة الحب كما تريدها هي.. فهي لا تستطيع أن تستمر في حياتها في هذا الشكل، دون أن يكون لها ارتباط مع إنسان مكافئ ومعادل لها من حيث العمر والتطلعات والأهداف المشتركة ورسم المستقبل معاً.

ـ تحترمينني أنا وتستمرين في العلاقة مع من تآمر على خالد.. قالت آمال بتهكم على كلام زميلتها وصال.

ـ أبداً.. لا تصدقي ذلك، أنا أعلم أن ثمة مؤامرة راح ضحيتها خالد وغيره من الأشخاص النزيهين والهدف كان إبعادهم عن طريق البعض، لكن صدقيني لم أشترك ولم أقبل على تلك المؤامرة وأستطيع أن أثبت لك حسن نيتي وأستطيع أن أؤكد لك أن المدير المالي هو مسؤول عن نصف هذه المؤامرة.. لقد أسرّ لي هو بذلك.

ـ هو بنفسه قال ذلك.

ـ نعم.

ـ هل تتعاونين معنا إذا تابعنا الموضوع.

ـ دعيني على حدة، لكني أصرح لك بذلك لتتأكدي من حسن نيتي.

ـ على كل سيعقد مؤتمر للنقابة وسنتحدث فيه ونحاول كشف المتلاعبين الذين أساءوا إلى الأبرياء.

* * *

في المساء رن الهاتف في بيت آمال، كان على الخط السيد سامي..

مساء الخير.

مساء النور.. أهلاً أستاذ سامي.

أرجو أن لا أكون قد أزعجتك.

لا أبداً، أنا كنت أفكر بالاتصال بك.

أريد أن أخبرك أن المدير العام على خلاف مع المدير المالي والوضع بينهما يكاد أن ينفجر.

هكذا إذن..؟ وأنا أيضاً لدي أخبار من عند وصال تتضمن اعتراف المدير المالي بالمؤامرة التي اشتركوا فيها للإيقاع بخالد ورفاقه.

عظيم جداً، حاولي أن تحصلي على معلومات أكثر من وصال يبدو أنها أخذت تسرب معلومات مهمة.

ثم يسود الصمت بضع لحظات..

ماذا بك.. آمال.. لماذا تصمتين..؟

لا شيء.

هل من مشكلة أستطيع مساعدتك بها.

لا..

هل هناك أخبار عن خالد الساعدي.

نعم.. لقد أرسل رسالة، إنه يعمل في لبنان وهو مصر على أنه بريء ومصمم على مواجهة أولئك الذين ظلموه.

بعد توقف برهة عن الكلام يسألها:

آمال.. هل تحبينه..؟

لم تجب.

لماذا لا تجيبين..؟

وهل يهمك الأمر..؟

نعم..

بماذا..؟

بكل شيء.. ولأنك الإنسانة التي أعزها في هذه الشركة.

أخذت تبكي..

لماذا تبكين..؟ أنت مهمة بالنسبة إليّ، إنني مستعد أن آتي إليك في هذه الساعة إذا كان ذلك يريحك.

إنني أبكي لأنني أرغب في أن يكون شكل علاقتنا أفضل من ذلك.

ألم تتفاهما قبلاً على معظم الأشياء.

ـ لا، لقد سافر دون أن يقول لي بأنه يحبني أو أقول أنا له ذلك، وهذا ما يزعجني.

ـ الكل يعلم أنكما تحبان بعضكما، الأفعال هي التي تعبر عن الحب خير تعبير وبالحب يكفي التلميح دون التصريح في ذلك.

ـ وأنت كيف هي زوجتك وأولادك..

فاجأه السؤال..

ـ ماذا خطر لك كي تسأليني وأنت تفترضين أن عندي زوجة وأولاد.

فكرت أنني لم أسألك قبلاً عن ذلك ورأيت من المناسب أن أسألك الآن.

لقد فهم سؤالها بأنه نوع من التذكير بأنه وفقاً لسنه ومركزه يفترض به أن يكون لديه زوجة وأولاد وله وضعٌ اجتماعيٌّ محددٌ ومفروضٌ عليه، أو أن سؤالها هو دعوة له كي يتحدث عن هذا الجانب من حياته.. هل هو سعيد في حياته أم لا.. فكرت أن تسأله عن هذا لكنها خشيت أن يفهم سؤالها على نحو غير مقصود أو أن يعتبر سؤالها نوعاً من الجرأة أو الوقاحة لا يليق بها أن تسأله.

شكراً لك على اهتمامك وتصبحين على خير.

* * *

كان البيت الذي استأجره خالد الساعدي يقع في الحي الغربي لسوق الغرب وتحت الهضبة التي اعتاد أن يصعد إليها للتأمل أو الكتابة أو موعد غرام يمكن أن يكون مع جمانة، يتكون البيت من طابقين، سكن خالد في إحدى غرف الطابق الأرضي بينما يسكن الطابق العلوي صاحب البيت ويدعى أبو أمين مع زوجته وأولاده، يوجد في الطابق العلوي خمسة غرف وشرفة واسعة تطل إطلالة جميلة على الحديقة المحيطة بالمنزل حيث

تتخلل الفجوات الفضائية بين أشجار الصنوبر المتمايلة تيارات هوائية تهب على المنزل تبعث النشوة صيفاً والبرد والزمهرير شتاءً.

كان البيت يبعث على السعادة والرغبة في القراءة والكتابة ويشد النفس إلى الهدوء والسكينة، إلا أن سكان البيت كانوا يتمتعون بصفات مختلفة، فهم دائمو الخصام والمشاكسة وأصواتهم عالية على عكس ما يتطلبه مثل هذا البيت من هدوء وسكينة، إذ غالباً ما يسمع صوت السيدة أم أمين وهي تتخاصم مع زوجها ويعلو صياحهما وبعد قليل يخرج أبو أمين غاضباً من المنزل حيث يركب سيارته الخاصة ويتجه بها بسرعة إلى مكان ما بعيداً عن المنزل.

حتى أن أولادهم الثلاثة اعتادوا حياة الصخب في المنزل وأضحت خلافات والديهم لا تثير الحزن في نفوسهم بل أخذوا يعتبرونها أمراً عادياً، وعلى هذا فهم أحياناً يضحكون ويلعبون في نفس الوقت الذي تكون فيه السيدة أم أمين في ذروة الغضب والانفعال. ويزيد من مرارة الخلافات في المنزل أن أبا أمين في الخمسينات من عمره وهو رجل يميل إلى الوسامة ومحب للحياة ولا مانع لديه من أن يكون لديه علاقات غرامية مع نساء أخريات، ولا يرى غضاضة في التحدث عن النساء بصورة عامة وخاصة إذا ما كان الحديث يدور حول جمال سيدة معينة تقدمت بها السنون وما زالت تحتفظ بجمالها ورونقها فلا تظهر عليها التجاعيد في العنق أو الوجه ولا يبدو عليها علائم الترهل والسمنة الأمر الذي يثير حفيظة السيدة أم أمين ويعطيها عاملاً آخر للخلاف، فهي من الناحية الجمالية من النوع الوسط وهؤلاء النسوة ينبغي عليهن لاجتذاب الرجل أن يظهرن مزيداً من

اللطف والرقة واللمسة الأنثوية المحببة، بينما هي يسيطر عليها الحنق وسرعة الانفعال نتيجة الحظوة التي يحضاها زوجها لدى النساء الأخريات حتى يخيل إليك أنها تتمنى أن يكون زوجها أكبر من ذلك بحيث يظهر الفارق العمري بينهما، وترتاح من مسألة الغيرة، وحتى لا نبالغ إذا قلنا أنها لا تمانع حتى لو كان في وجه زوجها تشوه ما أو يوجد عرج في رجله مثلاً، الأمر الذي يخفف من ركضه وراء النساء وإعجابهن به.

رغم وجود مثل هذه الصفات في الأسرة التي لا تعتبر من الصفات الجيدة، إلا أنها تتحلى بالطيبة والبساطة اتجاه الآخرين، وقد لمس خالد ذلك من خلال معاملة أبو أمين المتسامحة معه في موضوع الأجرة، كذلك إن الأسرة تتصف بكرم النفس والعطف الذي غمرت خالد به، ففي كل يوم تقريباً تبعث السيدة أم أمين مع أحد أبنائها الثلاثة طبقاً مليئاً بالطعام من طعام الأسرة اليومي، أو يبعث أبو أمين وراء خالد كي يسهرا معاً على الشرفة يتبادلان الحديث.

ولقد زاد من احترام الأسرة لخالد عندما علمت الأسرة أن خالد على قدر من الثقافة والتعليم ولقد بادر خالد إلى تقديم المساعدة للأولاد في دراستهم الأمر الذي عزز الثقة بين الأسرة وبينه حتى أن أبا أمين وزوجته لا يتورعان عن الإفضاء ببعض مكنون أسرارهما الشخصية له.

زارت جمانة في يوم العطلة خالد في منزله الجديد.

- البيت جميل.

- عدم المؤاخذة على بساطة أثاث البيت فهو لا يليق بالمقام.

لا .. لا .. إنني أحب البساطة في الأثاث، وهذه الغرفة تعيدني إلى الوراء عشر سنوات عندما كنت طالبة إنها باختصار جميلة..!

هل نخرج نجلس في الحديقة.. الشمس رائعة.

نعم..

جلسا في الحديقة يشربان القهوة، وبعد قليل أتت أم أمين تحمل صحناً من الكرز حيث سلمت على جمانة وجلست إلى الطاولة تشاركهما الحديث.

ـ خالد شاب جيد ومتعلم.

ـ المهم أن تكونوا مع خالد مرتاحين ومنسجمين قالت جمانة.

ـ شكراً لك يا ست أم أمين.. السيد أبو أمين أين ذهب.. أضاف خالد متسائلاً.

ركب السيارة منذ الصباح وذهب ولم يقل إلى أين قالت ذلك بتكشيرة من فمها وأشاحت بيدها في الهواء علامة على نفاذ الصبر.

ـ ما بك يا أم أمين.. هل اختلفتما اليوم..؟ لا يجوز ذلك، أنتم والحمد لله أوضاعكم حسنة.. بيتكم وأولادكم والمحل التجاري الخاص بكم يدر عليكم دخلاً جيداً، فما هو سبب خلافاتكما..؟

ـ أنت احكم بيننا.. زوجي العزيز لا يأتيني باللحم إلا مرة واحدة في الأسبوع..! ثم أضافت كما أنه لا يأخذني إلا مرة واحدة في الشهر إلى السينما..! بربك هل هذا عدل..؟ هل أعيش أنا على كيفه..؟

ضحك خالد من كلام أم أمين وأسند ظهره على مسند المقعد وقد دمعت عيناه من الضحك.

ـ خير إنشاء الله.. هل كلامي يضحك..؟ سألت أم أمين باستغراب.

لا أبداً.. إنما موضوع اللحم، هل من الضروري أن يأكل الإنسان اللحم يومياً..؟

ـ ليس بالضرورة كل يوم، لكن بالوقت الذي يريد الإنسان.

كما تشائين ليس معه حق في ذلك، قال خالد ذلك مسايرة لأم أمين.

عندما حملت أم أمين صحن الكرز أو ما تبقى منه وذهبت إلى البيت أنبت جمانة خالد على تماديه مع أم أمين وضحكه على كلامها.

ـ أنت لم تعرف ماذا تقصد في أكل اللحم..!

ـ ماذا تقصد..؟

ـ قصدها أن زوجها أبو أمين لا ينام معها إلا مرة واحدة في الأسبوع وهي لا تكتفي بذلك.

ضحكت جمانة واعتلت حمرة الخجل وجهها وقالت ضاحكة:

من أين أتيت في مثل هذا التفسير..؟ ثم استطردت هل تعني أن أم أمين تحب أن ينام معها زوجها يومياً.؟

هي لم تصرّ على اليوم ولكنها لا تكتفي بمرة واحدة في الأسبوع. ثم أن المسألة مسألة مزاج ليس كما يريد أبو أمين فقط، وهذا حق لها.

تضحك جمانة من جديد وتعلق.

أنـتم الرجـال لا تفكـرون سـوى بغرائـزكم، المخلوقـة لا تقـصد الـذي تفسرّه أنت.

ـ وأنتنّ غامضات لا تتكلمن إلا بالإشارات، واللبيب من يفهم إشاراتكن.

ـ يبدو أنني سأبدأ أغار عليك أكثر من اللزوم..!

واستطردت بحديثها:

علـى فكـرة.. إن المدرسـة سـتقوم بـرحلـة إلى نبـع البـاروك، هـل تحـب أن تكون فيها..؟

هل أنا ملزم بالذهاب فيها..؟

لا.. وإنما يلزم أن يرافق بعض الموظفين الطلاب في رحلتهم هذه، وأنـت لم ترَ تلك المناطق بعد.. إني أحب أن تكون معنا في الرحلة.

ثم انتقلا إلى حديث آخر حيث سألها خالد:

ـ هل هناك أخبار جديدة؟

ـ لقد علمت أن زوجي السابق قد استفسر عن عملـي في المدرسـة، متـى بدأت العمل فيها ووقت ذهابي وعودتي منها.

ـ هل يمكن أن يكون هو من جنـد الـرجلين اللـذين قامـا بالاعتـداء علـيّ لتخويفي..؟

ـ لا أعرف.

ـ علـى كل لا يهم، سواء هو أم غيره وراء ذلـك، هذه هي الحياة صراع لا يهـدأ، ونحـن ملزمـون أن نكون في وسطه شئنـا أم أبينـا وأنـا قـد تعـودت علـى ذلك.

وضعت يدها على يده متعاطفة وداعية لأن يعطي الجلسة دفقات من الحنان أكثر.

أحس بحرارة يدها تسري في جسده، نظر إليها، فهمت الإشارة، وبإيماءة صغيرة من رأسه نهضت واتجهت إلى الغرفة الكائنة في الطابق الأرضي.

أُغلق الباب وأُسدلت الستائر.

لم يكن طعم الحب لذيذاً كما كان في هذا اليوم الربيعي فقد كان يشبه طعم النبيذ المعتق ورائحة عطرٍ يفوح من ثوب امرأة متبرجة يحركه الهواء.

استطاعت جمانة أن تمارس الحب بإتقان وعذوبة كمن يدخل إلى كرم عنب بعد نضجه وهو مشتهٍ له. أفاضت من عبقها ورائحة أنفاسها على خالد ما جعله يشعر بالثمالة من هذه الإنسانة التي أغدقت عليه حبها دون تحفظ.

وضعت يدها على بقايا جرح في صدغه وتلمسته جيداً.

ما هذا الجرح..؟ كأنني لم أره من قبل.

إنه بقايا جرح من معركة جبل الشيخ.

هل كنت هناك فعلاً؟

نعم.

كيف أصبت.

ـ لماذا تسأليني الآن وقد مضى سنوات على تلك الحرب.

ـ أحب أن أعرف كل شيء عنك. وأخذ يحدثها بما أسعفته الذاكرة من أيام تلك المعركة.

ـ عندما قامت الحرب كنت عسكرياً في القوات الخاصة، حيث أبلغنا قائد الكتيبة بعد أيام من اندلاع الحرب بأمر المهمة القاضية بالذهاب إلى المرصد وتعزيز الدفاع عنه.

ومضى يحدث جمانة عن تلك المعركة بما علق في ذاكرته من حوادثها.

طارت الحوامات بنا متجهة غرباً وهي تحاول التخفي عن أعين العدو بين سفوح الجبال الغربية من جبل الشيخ. كانت تسمع دوي انفجارات في الجنوب والغرب ودخان قذائف وسحائب من الغبار قد أثارته الآليات العسكرية ولا يستطيع أن يميزها المراقب فيما إذا كانت آليات صديقة أم عدوة.

ظهر المرصد عن بعد وقد ارتفعت هوائياته في السماء، وفي الغرب منه كان ثمة انفجارات ناجمة عن قصف العدو للمنطقة بقذائف الهاون، انخفضت الطائرات أكثر خوفاً من إصابتها بالقذائف وقامت بالهبوط في وهدة من الأرض شرقي المرصد، وكان الأمر أن نتقدم بترتيب القتال باتجاه المرصد سيراً على الأقدام.

نزلنا بسرعة من الطائرات التي ظلت مراوحها تعمل بكل طاقتها حيث أقلعت بعد دقائق من الهبوط عائدة من حيث أتت، كنت أشعر بألم في قدمي قبل بدء المعركة نتيجة إصابتي في التدريب قبل أيام من المعركة. إلا أنه هنا في جبل الشيخ ولسبب ما لم أعد أشعر بالألم..!

مضيت مع رفاقي متقدمين اتجاه المرصد محاذرين انفجارات القذائف التي بدأ العدو يرمينا بها.

أصـيب بعـض العناصـر مـن رفاقنـا واسـتـشهد الـبعض الآخـر إلا أن الكتيبة واصلت التقدم حيث وصلنا المرصد بعد سير ساعتين بـين الـصخور والوديان.

شاهدت ضخامة التحصينات التي تفنن العدو في إقامتها لحماية هذه العـين الكاشـفة لكـل مـا يتحـرك علـى مـسافة عـشرات الكيلـومترات، ففـي الغـرب والجنـوب الغربـي كـان سـهل الحولـة يظهـر منبـسطاً أمـام سلـسلة جبال الجليل التي ترتفع قممها الزرقاء إلى الـسماء تحـاول أن تطـاول قمـم جبـل الـشيخ ارتفاعـاً أمـا ناحيـة الـشرق فقـد كانـت سلـسلة الجبـال تمتـد متناهية في الصغر إلى قرب دمشق، أما في الجنوب والجنـوب الـشرقي كـان الـسهل الحـوراني ينبـسط أمـام النـاظر حتـى تحـسب أنـك تـرى الأردن رغـم بعـده بناظريـك، أمـا في الـشمال والـشمال الغربـي فثمـة قمـمٌ أخـرى لجبـل الشيخ أقل ارتفاعاً تمثل امتداداً للجبل في القطر اللبناني تتدرج نـزولاً إلى البقاع الغربي ومنطقة جبل عامل.

بتنا ليلتنا في المرصد، كان العدو لا يهدأ ساعة واحدة وظـل طـوال الليـل يقوم بالقصف المدفعي ومحـاولات اقتحـام بريـة لاسـتعادة المرصـد مـن قواتنـا، كانـت الكتيبـة الـتي سبقتنا تخـوض معركـة شرسـة غربـي المرصـد والعـدو يحاول بكل قواه سحق مقاومة الكتيبة التي تعيق تقدمه ناحية المرصد.

أتـى صـباح اليـوم التـالي والوضـع العـسكري علـى أشـده والعـدو لم يـستطع أن يحقـق أي تقـدم، إلا أنـه اسـتمر في الـضغط العـسكري والنفـسي علـى القـوات المدافعـة عـن المرصـدِ، هـذا هـو الطـيران قـد ظهـر مـع إطلالـة الصباح يرمي قنابله على القوات المدافعة.

أمرت كتيبتنا أن تتقدم لمساعدة الكتيبة الثانية في تصديها لهجوم القوات البرية للعدو، لقد كنا نرى بالعين المجردة طائرات العدو الحوامة وهي تهبط في الوديان الغربية من منطقة القتال وتقوم بإنزال الجنود، كما كانت تشاهد آليات وعربات لنقل الجنود ومدرعات خفيفة تأخذ مواقعها استعداداً لهجوم واسع يستعد العدو للقيام به، اشتد هجوم مشاة العدو شراسة في محاولة لاختراق دفاع الكتيبتين اللتين صمدتا في الدفاع رغم الخسائر الكبيرة التي منيتا بها جراء استمرار القصف المدفعي ورمايات الدبابات على مواقع الكتيبتين اللتين لم يسعفهما الوقت للقيام بالتحصينات اللازمة لمثل هذه المعركة، لقد كانت تدابير الدفاع على عجل هي عبارة عن خنادق فردية تحمي المقاتل جزئياً وسواتر بسيطة لا تحمي من القذائف والرمايات المركزة أو قصف الطيران، كلفني آمر السرية بأن أقوم مع زميل آخر لي بتدمير موقع من مواقع مدافع الهاون كانت رماياته شديدة التأثير على الكتيبة، تقدمنا ببطء مع هبوط الظلام اتجاه الموقع المعادي، اقتربنا أكثر إلى الحد الذي أخذنا نسمع فيه أحاديث الجنود أطلقنا قذائف الآر بي جي على الموقع تعالت على إثرها الانفجارات، فقد أصبنا صناديق الذخيرة وارتفعت السنة النيران تأكل الموقع وما فيه من جنود الذين علا صراخهم وصياحهم، انسحبنا بسرعة محاولين العودة إلى مواقعنا التي انطلقنا منها، إلا أننا وقعنا في كمين معادي في الطريق.

أسرعنا في الانبطاح أرضاً، إلا أن جنود الكمين قد شاهدونا أيضاً وانبطحوا بدورهم على الأرض وبدأوا في إطلاق النار.

كانت الصخرة التي أتمترس خلفها تقيني كثافة نيران العدو رغم تتطاير شظايا من الصخرة تضرب وجهي ورأسي، أما زميلي فقد أصيب وأخذ يتلوى جانبي.

اصمد.

لقد أصبت في كتفي.

دوى انفجار قنبلة يدوية أمامي حسبتها قرب رأسي مباشرة، تطايرت شظايا من الصخرة أمامي أصابت رأسي ووجهي، أحسست بدويّ في أذني وبسائل ساخن يسيل من رأسي، وضعت يدي على رأسي فهمت عندها أنني أصبت.

صمت قليلاً، وبالمقابل صمت جنود الكمين، ثم سمعت حديثاً يدور بينهم بالعبرية انطلق بعده أحد الجنود محني الظهر شاهراً سلاحه نحوي.

إنهم يحسبونني قتلت، هذا تفسير صمتهم وهذا الجندي أرسلوه للتأكد من ذلك.

ما إن اقترب الجندي أكثر حتى ضغطت على الزناد خرجت من بندقيتي صلية نارية سقط الجندي على إثرها كالكيس متكوماً أمام الصخرة التي أحتمي بها.

عاد إطلاق النار من جديد، تأتيني عشرات الطلقات لتخرج من عندي طلقة واحدة أو صلية صغيرة ثم يتكرر المشهد ثانية قنبلة يدوية ودخان يحيط بي، إلا أن هذه المرة رأيت شبح ثلاثة جنود يتقدمون نحوي، واحد عن اليمين وآخر عن اليسار والثالث تقدم نحوي مباشرة، فكرت ماذا أفعل..؟

وكأن دفق من الشجاعة قد ملأ جسمي وروحي أنساني مجرد التفكير في الموت وحتى الجرح النازف في صدغي نسيته تماماً فنهضت مسرعاً وأنا أصرخ ويدي تضغط على الزناد ليسقط الجندي أمامي مباشرة، تابعت الركض وطلقات الرصاص تلاحقني عن جانبي وبين رجلي وفهمت من أصوات الجنود أنهم عثروا على رفيقي المصاب الذي ما زال قابعاً في مكانه، وما أن ابتعدت عن موقع الكمين المعادي حتى بدأت أسير ببطء محاذراً أن أقع في كمين آخر، لكني ما أن قطعت مسافة كيلومتر واحد بين الوديان حتى وجدت نفسي وجهاً لوجه أمام جنديين لم أعرفهما فيما إذا كانا صديقين أم عدوين، ولا أعلم من قام بالانبطاح على الأرض قبل الآخر، أنا أم هما..؟ فقد تصرفنا بحكم غريزة المحافظة على البقاء.. وسمعت صوتهما بالعربي.

من أنت..؟ وأحسست عندها بنوع من الاطمئنان..

أنا جندي سوري.

ما اسمك..؟

خالد الساعدي..

من أين..؟

من القوات الخاصة.

من أي موقع..؟

من موقع جبل الشيخ..

ماذا تفعل هنا..؟

اصطدمت بكمين وإنني مصاب.

انهض على قدميك..

من أنتما أولاً..؟

نحن من لواء الإمداد.

وعندما سمعت ذلك نهضت وتقدمت إليهما بقواي الأخيرة قبل أن أفقد الوعي بين أيديهما، ولم أصحُ إلا وأنا في المستشفى العسكري.. وهذا الجرح هو أثر من آثار تلك المعركة.

كانت جمانة تستمع إلى حديث خالد وهو يسرد عليها سير المعركة التي جرح فيها بأعين مشدوهة وذهول لضراوة القتال وعنفه وشدة الأوقات التي مر بها حبيبها.

وبحنان زائد انحنت على رأسه وقبلت ذلك الجرح وأطلقت تنهيدة وقالت:

أحب حبيبي أن يكون رجلاً شجاعاً...

- ٢ -

علا الضجيج ساحة المدرسة حيث يختلط صخب الطلاب مع أصوات السيارات التي أحضرها بعضهم لاستخدامها في الرحلة، بينما ارتدت أجسام الطلاب ألبسة من كل شكل ولون وتعددت أشكال وألوان الحقائب التي تم اصطحابها حتى أن الأستاذ زكار الذي تعود أن يظهر بلباسه الرسمي دائماً، بذلة وربطة عنق وحذاء يحرص على تلميعه بشكل

دائم كان يرتدي لباساً رياضياً وحذاءً لمتسلقي الجبال بينما علت رأسه طاقية من تلك التي يرتديها شبان صغار في السن.

أضحك منظر الأستاذ زكار خالد، فهو إلى جانب لباسه الذي يظهره أصغر من الواقع بسنوات طويلة أوحت تصرفاته وحركاته البسيطة أن له طبيعة أقرب إلى البساطة منها إلى التجهم والعبوس.

قدمت جمانة وقد أشارت بيدها من بعيد لخالد أن يقترب منها، كانت تتحدث مع بعض الموظفين والمدرسين الذين تحلقوا حول أحد الطلاب الذي كان يقوم بألعاب سحرية هي أقرب إلى الخفة والبهلوانية من السحر، كأن يضع قطعة نقود في يد أحد الأشخاص وخلال ثانية واحدة يستخرجها من جديد من خلف أذن شخصٍ آخر الأمر الذي يضفي روح الفرح والفكاهة على الحاضرين.

كانت جمانة تلبس بنطلوناً من اللون البني الغامق وقد اختارته بعناية لمثل هذه الرحلة حيث يتصف بالفضفضة قليلاً، فلا يحصر الجسد ويضيق عليه الأمكنة بل يترك مساحة للركبتين والردفين بعيداً عن الحشر والانحصار في البنطلونات التي ترتديها عادة، وقد لبست فوق البنطال قميصاً من اللون الأصفر البرتقالي وضعته تحت البنطال وقد ربطت عنقها بمنديل كان يتدلى فوق صدرها أشبه بالفولار الذي يرتديه تلامذة المدارس الابتدائية، وقد اعتلت رأسها طاقية من تلك الطواقي الصغيرة الحجم إلا أن لها واقية شمسية كبيرة تخفي تحتها نظارتين عسليتين تضفيان على جمانة روح المرح والسعادة، كان شكلها ولباسها يوحي أنها سائحة أوروبية يغري بالمرافقة والتحدث معها.

تقدم منها متهللاً.

صباح الخير جمانة.

أهلاً ، صباح النور. أراك لم تغير لباسك..؟

نعم.. لا داعي لتغييره.

نحن ذاهبون كي نتسلق الجبال أو نعبر النهر واللباس ينبغي أن يكون متناسباً مع ذلك.

أستطيع أن أقوم بذلك دون لباس آخر.. اطمئني.

صعد الطلاب مع أساتذتهم إلى الحافلة المعدة للرحلة بينما كان آخرون يصعدون إلى بعض السيارات الخاصة وهم يتصايحون ويطلقون زمارات احتفالية وأصوات أبواق كرنفالية.

جلس خالد في الصف الثالث جهة اليمين من مقاعد الحافلة بينما جلست جمانة في الصف الأمامي جهة اليسار للحافلة حتى تستطيع أن تنظر إلى خالد أثناء الطريق.

كان الطريق يسير متعرجاً بين طيات الجبال وينهض صاعداً من منطقة سوق الغرب إلى جبل الباروك الذي أتعب الحافلة في لهاثها المتواصل في عملية الصعود والطلاب لاهون عن صعوبة الطريق ومخاطره بالأغاني التي يحفظونها ويبتكرون البعض منها في اللحظة والدقيقة حيث تتضمن كلمات مضحكة وساخرة وقد أشارت بعض الكلمات إلى الأستاذ زكار حيث علا الصياح عندما تردد اسمه في كلمات الأغنية التي يرددها الطلاب.

الأستاذ زكار

ماخدنا مشوار

عالنبع الفوار

اللي بيروي

اللي بيمري

اللي بيطفي النار...

كان خالد سارحاً بأفكاره إلى خارج ما يدور في الحافلة، فقد استرعت اهتمامه صفوف الأشجار المتوضعة حول الطريق وتلك الوهاد السحيقة التي تمر قربها الحافلة حيث تظهر القرى منثورة على سفوح تلالها حتى تحسب أنك تركب طائرة تنظر منها وإلى تلك الأبراج المعدنية الهائلة لشبكات الكهرباء والتي زرعت في أعالي الجبال ومنخفضات الوديان حتى يعجب الإنسان كيف تمكن عمال الشبكات من إقامة هذه الأبراج في تلك المناطق الجبلية الشديدة الانحدار.

وصلت الرحلة إلى نبع الباروك الذي يقع بين سفوح الجبال المطلة عليه وتشكل معيناً كبيراً لذلك النبع بما تختزنه من ثلوج في فصل الشتاء سرعان ما تذوب فتتحول إلى أنهار صغيرة وسواقي تسقسق منحدرة بين صخرات الجبال وجذور الأشجار وصولاً إلى النبع الذي حفرت حوله أخاديدٍ متطاولة من العشق بين الساقية والنبع.

نزل الطلاب من الحافلة وهم يحاولون التجمع امتثالاً لطلب الأستاذ زكار الذي أعلن بصافرته ضرورة أن يجتمع الطلاب أمامه.

قُسِّم الطلاب إلى قسمين وترك الخيار لمن يرغب بالانضمام إلى أحد القسمين الذي يريد.

قسم منهم يصعد الجبال في رحلة فيها المغامرة والمتعة برفقة بعض هواة تسلق الجبال ومدرب محترف. وقسم آخر يبقى عند النبع يستطيع أن يمارس هواية صيد الأسماك أو أن يتجول بالغابة المحيطة بالنبع أو يمارس بعض الألعاب التي تمكن طبيعة الأرض من ممارستها.

وقد حدد الأستاذ زكار الساعة الثانية بعد الظهر موعداً للتجمع ولإقامة حفل غداء لحم مشوي على الطبيعة.

طلبت جمانة من خالد أن يبقى مع القسم الباقي عند النبع، امتثل لرغبتها ورغبته هو في أن يستمتع أكثر في مشاهدة النبع وتذوق مياهه العذبة الرقراقة التي ما أن يشرب منها الإنسان حتى يشعر برغبة في الاستزادة بعد مدة قصيرة من الزمن، وما أن توزع الطلاب وبدأ كلٌّ منهم يستمتع بوقته حتى أخرج الأستاذ زكار صنارة صيد وركبها واختار لنفسه صخرة عالية مشرفة على الماء ووضع سلة الطعوم جنبه وألقى بها في المياه بطريقة صياد محترف وهو يبتسم لجمانة ويداعبها بقوله سأصطاد سمكة كبيرة اليوم..!

أما خالد فقد انتحى جانباً وجلس جانب صخرة حيث أسند ظهره إليها وأخذ يمعن النظر في نبع الماء الأزرق وانعكاس لون الأشجار الأخضر عليه حتى يبدو لونه مزيجاً بين اللونين ويعطيه طابعاً زجاجياً صقيلاً.

اقتربت جمانة من خالد وطلبت منه أن ينهض ويمشي معها قرب البحيرة ويراقبان الطلاب أفضل من أن يجلسا بعيداً ويثيرا تساؤلات غير مرغوبة.

نهض ومشى جانب جمانة التي ظهرت كأنها أخف وأصغر سناً مما هي عليه.

قالت له وهما يسيران جانب ضفة النبع:

ـ خالد.. لا أعرف ماذا أقول لك.

ـ ماذا يا جمانة.. هل يوجد شيء..؟

ـ زوجي..

ـ ما به..

ـ هو من كان وراء الاعتداء عليك.

ـ وهل تأكدت من ذلك؟

ـ نعم..

ـ كيف..

ـ هو اعترف لي بذلك، ينبغي أن تحذر وتعطي علاقتنا شيئاً من النقاهة.

ـ هل تخشينه..؟

ـ لا .. لكنه ما زال زوجي.

ـ المهم أنت.. وإذا أردت أستطيع أن أترك المدرسة وأبحث لي عن عمل في مكان آخر.

ـ ليس هذا ما أقصده، لكني لا أريد أن يحدث أية مشاكل جديدة، لقد قدم من أميركا لأجلي.

كما تشائين.

عادا صامتين وجلسا قرب الماء ليس بعيداً عن الأستاذ زكار وطلبت جمانة عدم التحدث فيما يزعجهما وأن يستمتعا بوقتهما في هذه الطبيعة الخلابة.

وبينما هما جالسان يستمعان للأستاذ زكار في تعليقاته عن الصيد ونوعية الأسماك إذ انزلقت قدم الأستاذ زكار وسقط في الماء مع صنارته بينما كان يحاول أن يرفعها بعد أن علقت بها إحدى الأسماك.

نظر خالد وجمانة إلى الأستاذ زكار فوجداه يتخبط في الماء تخبط إنسان لا يجيد السباحة.

ركض خالد مسرعاً وقفز إلى الماء وسبح باتجاه الأستاذ زكار وسحبه إلى الشاطئ ومدده على الأرض وأخذ يساعده في خلع سترته المبتلة بالماء.

شكراً لك يا خالد، شكراً لك.. الصنارة ما زالت في الماء. قال ذلك وهو يلهث محاولاً التقاط أنفاسه.

عاد خالد إلى الماء حيث كانت الصنارة طافية على صفحته، سحبها وإذا بها عالقة بسمكة كبيرة، استمر في سحبها إلى أن أخرج الصنارة مع السمكة التي أخذت تتقلب في الهواء وهي تحاول العودة إلى الماء، لكن كيف وقد أمسكت بها يد خالد وأخرجتها من الماء ووضعتها قريباً من صائدها وهي تفتح فمها طلباً للأوكسجين لكي تعيش.

ها هي الصنارة يا أستاذ زكار وها هي السمكة التي سببت وقوعك في الماء.

نظر الأستاذ زكار نظرة تأمل وقال:

أنا اصطدت السمكة ولكنك أنت من أخذها.. وها هي السمكة لك، تشويها على الغداء.



لم يكن للنار التي اندلعت في مستودعات المؤسسة أن تنطفئ قبل مضي يوم كامل بفعل المواد المكدسة في المستودع من أقمشة ومواد كيميائية كانت معدة للسوق، حتى أن سيارات الإطفاء التي اجتمعت من كل أنحاء المدينة لم تتمكن من محاصرة النيران رغم الجهود المبذولة من قبل رجال الإطفاء الذين بذلوا أقصى طاقتهم في مكافحة الحريق.

كان التحقيق في أسباب الحريق يدور حول ما إذا كان الحريق ناتجاً عن ماس كهربائي كما استنتج البعض أم كان بفعل فاعل كما يقول البعض الآخر، الأمر الذي يرجح الاعتقاد الثاني ضراوة النيران وتمكنها من الإتيان على كامل محتويات المستودع والأقسام الملحقة به.

شمل التحقيق عناصر المستودع العشرة بما فيهم عهد الذي يشغل وظيفة رئيس المستودع، وقد لفت انتباه المحققين وجود عنصر في المستودع كان قد تم التحقيق معه في حادث السرقة السابق الذي تم على إثره إحالة عدد من العناصر إلى القضاء.

ألا تشك في أحد يمكن أن يقوم في مثل هذا العمل.

ـ إذا كان هناك من له مصلحة في ذلك فإن الأشخاص السابقين الذين اتهموا في موضوع السرقة واختفاء المواد من المستودعات يمكن أن يكون لهم مصلحة فيما حدث.

أنت تتحدث وكأن الحريق قد تم بفعل فاعل بشكل مؤكد.. أليس هناك احتمال أن يكون قد تم بفعل ماس كهربائي..؟

نعم.. نعم يا سيدي، لكنني أحاول أن أجيب على تساؤلك.

أليست المستودعات مقفلة..؟

نعم يا سيدي..

مع من تكون المفاتيح؟

معي يا سيدي ومع المدير العام نسخة أخرى باعتباره لا يوجد الآن مدير للمستودعات.

في اليوم التالي كان المحقق في مكتب حسن أفندي .

أهلاً وسهلاً بجناب المحقق.

أريد أن آخذ من وقتك ساعة من الزمن لكي نستوضح أكثر عن الحريق الذي حصل في مؤسستكم.

تفضل..

بداية.. هل تشك بأحد يمكن أن يقوم بذلك يا أستاذ.

الله يسامحك.. هذا سؤال يمكن أن تسألني إياه..؟

وما هو المانع في ذلك..؟

لأني لست على صلة بالعاملين في المستودع..!

العامل وائل ما رأيك به..؟

لا أعرفه تماماً.. أين هو.. في المستودع..؟

نعم وأحب أن أذكرك به، إنه من العناصر الذين شملهم التحقيق في حادث السرقة السابق.

نعم لقد عرفته..

أستأذنك في الانصراف ولنا لقاء قريباً.

* * *

جاءت وصال إلى المكتب الذي تعمل فيه آمال على غير عادتها.

مرحباً آمال.

أهلاً وصال.. أراك هنا.. هل من خدمة..؟

أنا في الواقع مررت لأراك.

تفضلي ولو أنك في موقع القيادة والقيادة عادة لا تنزل إلى مستوى الشعب إلا عند الحاجة. قالت آمال متهكمة.

أنت دائماً تضعين العراقيل في علاقتنا، فأنا مثلك من الشعب، لست من القيادة ولا أنت من الشعب.

إني أمزح معك.. ماذا تشربين..؟

قهوة سادة.. هل من جديد عن المغتربين..؟

من تقصدين..؟

من أقصد يعني.. وهل يوجد غير خالد..؟

وصلتني رسالة يقول إنه بخير وسيأتي عندما تكون الظروف مناسبة وهو يفكر في أن يرفع دعوى على من كان سبباً في اتهامه والافتراء عليه.

أنا أعتبرك يا آمال صديقتي كما أعتبر خالد صديقي أيضاً وأحاول أن أساعده الآن.

وكيف ذلك..؟

الوضع الآن في الإدارة سيء جداً، والخلاف قد اشتدَّ بين المدير المالي والمدير العام، يوم أمس كان الجدال حاداً بين أحد المتعاملين المهمين مع المؤسسة وبين المدير المالي وقد سمعت بعضاً من الحديث الذي دار بينهما.

ماذا دار..؟

كان المتعامل يمتنع عن دفع المبالغ التي يطالب بها المدير المالي بعد الحريق وخاصة أن الثبوتيات قد ضاعت.. لقد كان المدير المالي شديداً في لهجته.

ـ يجب أن تدفع المبالغ المتبقية عليك.

ـ لقد دفعت الكثير.

ـ والباقي عندك أكثر.

ـ والمبالغ التي أدفعها إلى المدير العام كاش أليست جزءاً من المبالغ المتفق عليها.

ـ أنت تدفع له على مسؤوليتك، والاتفاق أن جميع الدفعات ينبغي أن تكون مناصفة، أما إذا كان هناك اتفاق خاص بينك وبينه، أنا ليس لي علاقة به.

ـ البضاعة في السوق كاسدة، والسعر أقل من السعر الذي اتفقنا أن تباع فيه.

ـ أحب أن أحذرك، ينبغي عليك أن لا تستغل حادث حريق المستودع وتظن أن القيود والمعلومات قد احترقت وإذا وصل الأمر إلى حد التحقيق في الموضوع فأنت مسؤول عن الكميات التي استلمتها بموجب فواتير نظامية وعن بيعها بالسعر الرسمي.

صفنت آمال بحديث وصال لها وقالت:

ـ تخبرينني في هذه المعلومات، ماذا تريدين مني أن أفعل..؟

إنني لا أعرف ماذا أصنع في هذه المعلومات، قالت آمال مخاطبة وصال بعد أن أدلت لها بحديثها.

بلغي ذلك إلى خالد أو إلى المدير الفني فإني ألاحظ بينكما نوعاً من التفاهم.

السيد سامي هو زميلنا في المؤسسة وأنا أحترمه.

هذا شأنك.

نظرت آمال إلى وصال باستغراب وسألتها:

وصال..؟

نعم.. ماذا تريدين..؟

قولي لي بصراحة..

ماذا أقول لك..؟

هل تغيرك الجديد نابع عن رغبة صادقة في مساعدتنا، أم وسيلة

لهدف آخر..؟

ما زلت تشكين بي..؟

بصراحة نعم.. أنت محسوبة على مجلس الإدارة وبالذات على شخص المدير العام، وأخشى أن يكون تقريك مني هو بهدف إعطائي معلومات مضللة.

منذ متى وأنا بالإدارة..؟ لا تحسبي أن شكلي الخارجي كاللباس والعطور والسيارة هو ما يحدد موقعي. إنني أفهم بأنني أدفع مقابل ذلك.. وإنني أعرف عندما أكون معه أشعر بأنني سلعة تستهلك من قبل من يقدر على الدفع، صحيح أنني أستفيد بالمقابل لكنني ما أدفعه أكثر من شبابي وكرامتي.. وما زلت تحسبيني على الإدارة.. فأنا لو لم أكن شابة وعلى قدر من الجمال هل يعيرونني اهتمامهم..؟

هذه صحوة مهمة يا آمال.

إنني غير ملزمة لأن أقول لك ذلك، لكن حتى تعرفي صدق عواطفي نحوك وقد شرحت لك الأمر.

مفهوم.. مفهوم، وأعتقد أنك في أعماقك إنسانة طيبة.

الآن وداعاً.

بعد ذلك اتصلت آمال بالأستاذ سامي.

ألو، أستاذ سامي..؟

نعم.. من.. آمال.. ؟

هل عندك وقت..؟

الآن..؟

إذا كان ذلك ممكناً.

لدي اجتماع.. يمكن أن أراك في نهاية الدوام.

أين في المكتب..؟

في السيارة، نذهب مشواراً ونتحدث فيه.

لا أحب أن يرانا أحد ما ونحن في السيارة.

أنتظرك عند المنعطف بعد بناء المؤسسة ونتحدث براحتنا .

اتفقنا.

كان الأستاذ سامي في نهاية الدوام قد وصل بسيارته إلى المنعطف المتفق عليه ينتظر آمال وهو يحرص على أن لا يراه أحد من عناصر المؤسسة خوفاً من ألسنة السوء التي يمكن أن تتناول شخصه وعلاقته بآمال.

كان راديو السيارة يبث أغنية شبابية من إحدى محطاته تقول كلماتها:

بحياتك يا ولدي امرأة

عيناها سبحان المعبود

فمها مرسوم كالعنقود

ضحكتها أنغام وورود

والشعر الغجري المنشور ينادي في كل الدنيا

قدرك امرأة يا ولدي

يهواها القلب في هالدنيا

كانت الأغنية لطيفة وكلماتها حساسة، فكر بينه وبين نفسه.. هل

موعده مع آمال موعد عمل ومصلحة عامة أم موعد غرام..؟

أجاب عن تساؤله:

إنه موعد عمل ومصلحة عامة بلا شك.. ! لكنني مستعد لأن أبقى عشر ساعات أنتظر وأنا أستمع إلى مثل هذه الأغنية التي أعجبتني وأنا أقبع وراء مقود السيارة أنتظر قدوم آمال.

ها هي آمال قد أتت تلبس بنطالاً من الجينز الأزرق وفوقه تلك الكنزة ذات الخطوط الذهبية الناعمة التي تكشف عن ساعدين أبيضين وعنق طويل وشعر غزير طويل تم ربطه كذيل الحصان.

كان البنطال يظهر تقاطيع جسدها الأنثوي بصورة لم يلحظها من قبل:

خفق قلبه بسرعة أكبر، حاول أن يقنع نفسه بأن تغير ضربات قلبه لا علاقة لآمال بها وإنما هو بسبب القلق من أن يراهما أحد وبالتالي هو قلق على السمعة وليس قلقاً بسبب الحب.

فتحت باب السيارة وجلست.

مرحباً.

أهلاً.. أغلقي باب السيارة جيداً.

هل انتظرت طويلاً.

ربع ساعة.

لم أتمكن من الخروج بسرعة، كانت وصال معي ولم أتمكن من التخلص منها حتى ادعيت بأنني ذاهبة كي أشتري شيئاً ما من هذا المكان.

لنمضِ إلى مكانٍ آخر قبل أن يرانا أحد.

إلى أين تريد أن تذهب..؟

إلى طريق المطار ما رأيك..؟

إلا يرانا أحد..؟

الطريق واسع ذهاباً وإياباً والسيارات لا تتوقف.

كما تريد..

ومضت السيارة في طريق المطار بسرعة بطيئة محاولاً أن لا يستهلك المسافة بسرعة وحتى يقضيا أطول فترة ممكنة في هذه النزهة.

هل من جديد..؟

وصال.

ماذا بها.

إنها تبدي رغبة في التعاون معنا وهي متحمسة كي تعطيني معلومات عن الإدارة تفيدنا.

أنا لا أثق بوصال، فهي ترتبط بعلاقات قوية مع المدير العام ومنذ مدة كانت معه في إيطاليا.

لقد تغيرت وأبدت ندمها على تصرفاتها السابقة.

على كل يمكن أن نستفيد من المعلومات التي تعطيها إذا كانت صادقة.. ماذا عندها.

تقول إن الخلاف بين المدير المالي والمدير العام بلغ أوجه وهناك أحد المتعاملين مع المؤسسة مستعد كي يفجر الخلاف لأن المدير العام يستأثر بالحصة الأكبر ويحصل على دفعات دون علم شريكه المدير المالي الذي

بادر بدوره إلى محاولة ابتزاز المتعامل من جديد وتهديده بالتفتيش.

ما اسم ذلك المتعامل.

لا أعرف.

من المهم أن نعرف اسمه كي نحاول الإطلاع على خفايا الأمور وكيف تصل له البضاعة عادة.. إننا نستطيع ذلك عن طريق وصال، فهي لديها معلومات مهمة.

وعندما أشرف الحديث في أمور المؤسسة على الانتهاء أدار مفتاح راديو السيارة باحثاً عن أغنية جديدة تضفي على الجو شيئاً من المرح حيث لمس لدى آمال رغبة في متابعة هذه النزهة ولم تطلب العودة السريعة.

لماذا ينتابه الإحساس بالسعادة بوجود آمال معه...؟ حتى أن الوقت يمر ولا يحس به..؟ هذا الشعور رافقه عندما أحبّ لأول مرة زميلته في الجامعة، كان يحس أنه يمتلك العالم عندما يلتقي بها..! الآن يلازمه هذا الشعور وإن بنسبة أقل نتيجة التقدم بالسن واستقرار العاطفة. لكن هل تشاركه هي في شعوره هذا...؟

ساد صمت بينهما، كان يتوقع أن تسأله لماذا لم يتزوج بعد لكنها حسناً فعلت في أنها لم تسأله، فهي ذكية وحساسة وتعرف أن الوقت غير مناسب لمثل هذا السؤال ويبعث على الإحراج بالنسبة له.

شعر برغبة في أن يضمها ويقبلها، لكنه لا يليق به أن يفعل ذلك وبينهما أكثر من حاجز تستطيع هي أن تحاججه به، كانت يدها قريبة من يده، بيضاء، غضة وبحالة استسلام على المقعد.

وضع يده على يدها برفق وضغط قليلاً.

لم ترفعها بسرعة، لبثت ثوانٍ ثم سحبتها بتؤدة، نظرت إليه بشيء من التساؤل.. ماذا تقصد بذلك..؟

أسبر غورك، هل أنت على استعداد للبدء بعلاقة جديدة رغم ما تحمل معها من تناقضات، باعتباري رجلاً يكبرك سناً وأنت فتاة مرتبطة مع شاب تحبينه كما يبدو لي، لقد فهمت سكوتك يا آنستي.. إنها فرصة تقدمينها لي حتى أثبت لك إنني جدير بحبك ويمكن عندئذٍ أن تزول التحفظات الموجودة لديك حيث يفتح باب الحوار والتفاهم حول العقبات التي تقف في طريقنا، والآن إنني أعتبر أن هذه الفرصة التي منحتني إياها هي أكثر من كافية.

هل تعود..؟

كما تريدين.

تكفي جولتنا الآن بالسيارة، ثم يمكن أن يرانا أحد ولا نستطيع أن نقدم تفسيراً لوجودنا معاً على طريق المطار.

هل أسأت إليك..؟

لا.. إلا أن حركتك فهمتها أنها نوع من الود والاستلطاف ليس أكثر من ذلك.

وإذا قلت لك أن الأمر يذهب إلى أبعد من ذلك.

لا أستطيع أن أعدو بتفكيري ذلك، لأنك مشدود بخيوط ولا يمكن أن تسعى إلى أن تربط نفسك بخيوطٍ جديدة وأنت ما زلت مربوطاً بخيوطك القديمة.

وهل تحسبينني عنكبوتاً حتى تتحدثي معي بلغة الخيوط.

العنبكوت يحسن الرقص على الخيوط التي يصنعها.. أما أنت فلا أدري هل ترقص على الخيوط أم لا..؟

- ٣ -

كانت الدقائق تمر ببطء شديد وجمانة لم تظهر بعد، نفض صفوة السيجارة بعصبية وأغلق مذياع السيارة الذي فتحه تزجية للوقت ريثما تأتي.. ها هي الساعة الثانية ولم تظهر بعد.. هل ينزل إليها في المدرسة ويسأل عن سبب تأخرها..؟ أم تراها ذهبت في طريق آخر..؟ لا يوجد طريق آخر سوى هذا الطريق، وإذا لم تأتِ ماذا أفعل..؟ فكر بشيء من الندم.. أنا المسؤول عن هذا الموقف الذي وضعت نفسي به..! انتظر قدومها مثل عاشق ولهان بعد أن كانت في قبضة يدي ولم أقدر الأمور بالشكل المطلوب أهملتها ولم أهتم بها، وأصبحت اليوم أركض خلفها استجدي رضاها.

ها هي قد أتت، ما زالت جميلة كما عهدتها، لا بل زادت جمالاً، لم تنتبه له، مرت أمام السيارة كي تصل إلى موقف التكسي.

جمانة.. جمانة.

التفتت إلى اليمين، رأته، عبست قليلاً وتابعت قطع الطريق إلى موقف التكسي.

حرك السيارة حتى وصل أمامها.

جمانة، اسمعيني، أريد أن أكلمك.

تذكرت الفكرة القاضية ضرورة التقرب منه لمعرفة هل هو وراء فكرة الاعتداء على خالد أم لا ، هدأت قليلاً وسألته بلهجة أقل حدة:

ماذا تريد..؟

أريد أن أتحادث معك لأشرح وجهة نظري.

نظرت حولها ثم قامت بفتح باب السيارة وصعدت.

جمانة حبيبتي.. اشتقت إليك.

لا تقل هذا.

كيف لا أقول وأنت في خيالي وفي بالي منذ أن فارقتني.

لم يكن يظهر عليك هذا الشوق عندما كنت معك.

كنت مخطئاً ولم أعرف قيمتك إلا بعد أن تركتني.

والآن هل صحوت..؟

نعم..

لكني لا أثق بك، إن تجربتي معك غير مشجعة.

جربيني من جديد، امنحيني فرصة أخرى.

نظرت إليه ملياً وسألته:

هل تحبني..؟

كثيراً.

هل تغار عليّ..؟

جداً.

هل أنت مستعد لتضرب إنساناً آخر من أجلي؟

بكل تأكيد.

أصدقني القول.. هل أنت وراء الاعتداء على الموظف عندنا في المدرسة الذي هو زميلي.

نعم.. وهذا تنبيه له، فقط تحذير دون أن أؤذيه.

لماذا فعلت ذلك..؟

لأنه قد وصلتني أخبار أنك على علاقة معه وأنك رفضت مقابلتي أول مرة من أجله.

ليس له ذنب في ذلك، هو شاب محترم وزميل لي في العمل ولا تستطيع أن تلومه، لأن الجميع يعلم بأننا منفصلان عن بعضنا البعض ولم يبقَ سوى إجراءات الطلاق الرسمية وعلى هذا فإنك لن تستطيع أن تمنع أي رجل من التقرب مني.

لكنني ما زلت زوجك في نظر القانون.

ليس القانون لوحده من يصنع العلاقة الزوجية، الزوجان هما الأساس، قلبا الرجل والمرأة وإرادتهما هما من يصنعان الزواج ويبقيانه وليس كاتب المحكمة الذي يسجل عقد الزواج، ولو أخذنا بوجهة نظرك هذه لكانت عقود الزواج التي تمت عبر التاريخ دون وجود محكمة أو كاتب يدون عقد الزواج غير صحيحة، وهذا طبعاً غير صحيح، المهم هو نية الاستمرار والاحترام وتقدير مشاعر كل طرف للطرف الآخر وإلا كان رباط القانون هو عبارة عن سجن لرجل وامرأة يمارسان النفاق والكذب على بعضهما البعض، هذا إذا كانا من النوع الهادئ والواعي، أما إذا كان

أحـدهما أوكلاهمـا شرسـي الطبـاع، فعنـدها يكـون العنـف هـو الـسائد ﴿ فِي ﴾ علاقتهمـا، وبـذلك فـإن العلاقـة الزوجيـة تفقـد متعتهـا ورقتهـا ودفء عاطفتها التي ينبغي أن تغلف حياة الزوجين مدى حياتهما.

أراك قد تثقفت وأصبحت تلقين عليّ محاضرة في ذلك.

هذه الثقافة كانت لدي من الأساس ولكنك لم تكتشفها أو أنك لم تسعَ إلى التعامل معي على أساسها.

قد يكون كلامك صحيحاً.

ها قد اقتربنا.. أنزلني هنا.

ابقي قليلاً.

لا.. أنزلني هنا..

متى أراك.. هل آتي إلى البيت..؟

سنرى.. تمهل قليلاً.

نزلت من السيارة ومضت إلى المنزل بينما كان زوجها يدور بسيارته وقد انتشى من لقائه مع جمانة التي اعتقد أنه كسر مقاومتها ولانت له وهي أصبحت على استعداد كي تبحث أمر العودة إلى الحياة الزوجية معه.

* * *

صعد خالد إلى مكتب السيدة ميراي والأستاذ زكار.. طرق الباب بلطف.

أدخل..

مساء الخير.

أهلاً سيد خالد، قال الأستاذ زكار.

أهلاً.. أهلاً.. قالت السيدة ميراي.. كيفك قالت ذلك بالعربية وإنما بلكنة أجنبية.

كويس.

هل هناك حاجة معينة..؟

أريد أن أشكركم أولاً، وأود أن أخبركم بأنني أرغب بأن أترك العمل في المدرسة إذا لم يكن لديكم مانع..

لم تفهم السيدة ميراي كل معنى الكلام الذي قاله خالد، نظرت إلى الأستاذ زكار الذي قام بإفهامها أن خالداً يريد أن يترك المدرسة.

سألت باستغراب:

لماذا..؟

ظروف خاصة.

إذا كان يريد أن أساعده في شيء.. أنا مستعدة... هل يريد زيادة أجر.

لا شكراً.. أريد أن أعمل وأن أسكن في نفس المكان مع صديق لي.

في اليوم التالي كانت جمانة تقف عند مدخل الباحة ناحية المطعم تنتظر مرور خالد الذي لم يتأخر كثيراً حتى ظهر..

صباح الخير..

صباح الخير جمانة..

هل صحيح الذي سمعته..؟

ألم تريدي ذلك..؟

ليس هذا ما أردته.. أنا قلت أن نعطي علاقتنا بعض النقاهة، وليس معنى هذا أن تترك المدرسة.

ريما هذا أفضل لي ولك ولقد فكرت في الموضوع ووجدت أنه من الأنسب أن اترك المدرسة ومكان السكن أيضاً عند أسرة أبو أمين.

ألهذه الدرجة تود الابتعاد..؟ ويمكن أن تذهب حتى من لبنان كله.. ! هكذا تذهب ببساطة دون أن تقول لي أين تريد أن تسكن أو تعمل..؟

كنت أنوي أن أذهب إليك في المكتب وأخبرك ذلك والآن وقد التقينا فإني أود أن أخبرك بأنني أعتزم الإقامة عند صديقي محسن وأن أعمل في المطعم الذي يعمل هو فيه.

- إذا كان هذا ما اعتزمت القيام به، فإنني أتمنى لك التوفيق، وينبغي علينا أن نلتقي قريباً.

كان خالد قد اتصل هاتفياً بصديقه محسن وأطلعه بصورة عامة على وضعه وأخبره بأنه سيترك المدرسة وينوي الإقامة عنده.

في المساء كان خالد يطرق باب بيت صديقه محسن مع حقيبته الذي استقبله بترحاب.

أهلاً.. أهلاً خالد.. هكذا إذن تركت المدرسة دون أن توضح الأسباب بالتفصيل، ثم أضاف.. هل تركتها بسبب المرأة التي أتت معك إلى هنا ذات يوم..؟

يمكن أن تقول ذلك.

إني أعرف أنها تحبك، وعلاقتك بها قوية.. فلماذا..؟

هذا صحيح.. لكن زوجها..؟

زوجها.. ما به..؟ ألم تقل لي أنهما منفصلان وهو يقيم في أميركا..؟

نعم.. لكنه عاد من أجلها، وهو يحبها ويحاول أن يعيدها لكنها رفضت وقد عرف هو أنها ترفض العودة من أجلي.

ألا يمكن أن يكون هو من دبر الاعتداء عليك..؟

هذا صحيح.. هو من كان وراء ذلك، لقد أخبرتني جمانة في هذا الأمر من خلال اعترافه لها بذلك وتوصلنا إلى نتيجة أنه ينبغي أن نعطي علاقتنا حالياً بعض النقاهة.

نقاهة..؟ ماذا تقصد بذلك..؟ وهل الحب يمرض ويحتاج إلى نقاهة..؟

نعم يمرض يا صديقي مثل سائر الكائنات، فالحب كائن حي يفرح ويحزن، يمرض ويتعافى..! ولقد أخبرتني أن زوجها من النوع الغيور وهو مصمم على إعادتها وقد وعدها بحياة جديدة تختلف عن الحياة التي عاشتها معه سابقاً.

وهل أنت راضٍ عن موقفها..؟ ألا يجوز أن تكون تلك النقاهة هي تسمية ملطفة لإنهاء العلاقة..؟

أنا أقدر الظروف، ربما ظروفها أقوى منها، وكما علمت فإن زوجها من النوع الشرس ويمكن أن يرتكب حماقات أخرى.

لذلك آثرت أنت الابتعاد..؟ على أية حال أهلاً وسهلاً بك ويمكن لك أن تباشر العمل من صباح الغد.

* * *

كان زوج جمانة قد مهد أجواء العودة مع والد جمانة وأمها التي رحبت بعودة زوج ابنتها ورغبته في إعادة الحياة الزوجية واعتبرت أن أسباب الخلاف بين ابنتها وزوجها عبارة عن نزوة عابرة يمر بها جميع الأزواج في مطلع حياتهم الزوجية وهي تحاول أن تبسط الأمر مع ابنتها.

ـ يا ماما.. كل الرجال لهم نزواتهم، خاصة في بلد مثل أميركا، يجب أن تغفري له ذلك.

ـ ليس هذا فقط يا أمي.. لقد عاملني كقطعة أثاث في المنزل فلم يقم لي وزناً ولا حتى كان يداري مشاعري كزوجة تأبى على كرامتي أن أعيش مع رجل يعاملني بهذا الشكل..!

ـ أنت محقة يا جمانة.. قال الزوج بشيء من الإحساس بالذنب وكما قلت سابقاً إن لي نزواتي وهفواتي ولقد علمت قدرك عندي عندما سافرت وتركتني، يمكن أن أجد هناك نساء كثيرات وحتى أجمل منك، لكنني أريدك أنت بالذات وسأكون لك الزوج المخلص الذي يقدرك ويحترمك وها هما والداك شاهدان على ذلك.

اتركني أفكر بالأمر.

سأعود قريباً إلى أميركا فإن أعمالي هناك متعطلة بانتظار موافقتك على العودة.

سأفكر.

أرجو أن لا تطول فترة تفكيرك.

مرت الأيام وخالد يعمل في المطعم لدى صديقه منفصلاً ذهنياً بشكل كلي عن المدرسة التي كان يعمل بها والجو العام الذي كان يعيش فيه

وما أثار وجوده في المدرسة من مشكلات صادفته، حتى جمانة التي ربطته بها علاقة حميمة أحس كأنه بعيد عنها وأن العلاقة بينهما أشرفت على الانتهاء. ربما لإحساسه بأنها تنوي العودة إلى زوجها تفادياً للمشاكل التي قد يثيرها إذا ما رفضت العودة، وقد يكون وضعه الاجتماعي وعدم استقراره عاملاً في تفكير جمانة بالعودة، هو لا يرى في عودتها إلى زوجها غضاضة، أو خطأ ما أو إهانة له، بل يراه قراراً جاء نتيجة التوصل إلى تسوية بين الزوج وزوجته قدّم كل منهما تنازلات للطرف الآخر.. هي قدمت الصفح عن هفوات الزوج وتوجيه الإهانات المعنوية لها سابقاً وهو قدم الاعتذار والتذلل والوعود المعسولة وهذا لا يغير في الأمر أن علاقته العاطفية المشبوبة ستبقى لوحة جميلة في حياته وحياة جمانة اللذين استطاعا أن يشكلا ثنائياً جميلاً لرجل وامرأة تبادلا الحب بصوره الجميلة الفاتنة وتصاعدت لواعج قلبيهما معبرة عما يختلج في نفسيهما من الغرام والهيام. وبالمقابل فإن صورة زميلته السابقة في المؤسسة آمال التي كان الضباب يلفها في مجريات علاقته بجمانة قد أخذت تتضح وتقترب بعد أن بدأت هالة الضباب بالانقشاع لتظهر صورة فتاة عصامية محبة بكل معنى الكلمة، إلا أنها تنتمي إلى مدرسة للإناث لا يعبّرن بسهولة عن عواطفهنّ وإنما يؤثرن الصمت معتمدات على إحساسهن وحدسهن الذي يعبر عن ضميرهن ويتوقف على الرجل في أن يعمل مجساته اللاقطة حتى يستطيع أن يتعامل معهن برقة وإحساس.

آمال تلك التي تركها تناضل وحدها لأجل قضيته وقضية زملائه لم يقدر نضالها بالشكل المطلوب وهو يشعر الآن أنه أذنب إليها بشكل ما، وفجأة قفزت إلى ذهنه فكرة أن آمال يمكن أن تكون قد تخلت عنه

ويمكن أن تكون قد وجدت شخصاً آخر يقدرها ويفهم لغة الرموز التي تتعامل بها. شعر برغبة في أن يكتب إليها ليستطلع أوضاعها ويعبّر لها بشكل ما أنه ما زال متمسكاً بها، وأنه حر طليق من أية علاقة عاطفية تربطه بغيرها.

* * *

من مفارقات الحب الجميلة، أن الإنسان المحب ما أن ينفصل عن محبوبه حتى يحس برغبة جامحة تدفعه للعودة إليه ومطارحته الغرام وأن يعب الإنسان ممن يحبه بالنظر وبالجسد وبالروح هذا ما شعرت جمانة به فوجدت نفسها مندفعة لزيارة خالد بعد مدة من تركه العمل في المدرسة.

كانت جمانة تتحدث مع محسن عندما دخل خالد إلى صالة الطعام وقد أدارت ظهرها إلى الجهة التي أتى منها.

وقف ينظر إليها متسائلاً: هل هي جمانة..؟ نفس اللباس ونفس الشعر كما يبدو من الخلف.

نبه محسن جمانة لقدوم خالد، التفت إليه مبتسمة.

مرحباً خالد.

أهلاً جمانة.

لقد جاءت تسأل عنك.. قال محسن.

أشرق وجهه ثم تابع..

تفضلي، دعينا نجلس في الطابق العلوي حيث الحركة فيه أقل والهدوء أكثر.

جلسا إلى الطاولة مقابل بعضهما البعض.

نظر إليها متفرساً، كانت تبدو امرأة ناضجة بلباسها الذي فيه الكثير من الاتزان والدقة في اختيار الألوان وتسريحة شعرها المتموجة إلى جانب وأسلوب التبرج البسيط على الوجه، إلا أنه لا يخلو من الذوق.

إنك تمعن في النظر إليّ، هل تراني قد تغيرت..؟

قليلاً.

بماذا..؟

ربما نفسياً، وفي الشكل قليلاً، والتغيير النفسي للإنسان ينعكس على الوجه.

هل تعلم أن ذكاءك وثقافتك هي أول ما شدني إليك وجعلني أتعلق بك.

قولي، ما هي أخبارك..؟

بالنسبة للمدرسة، الجميع بخير، وهم مستاؤون لأنك تركت المدرسة دون سبب مقنع وخاصة السيدة ميراي. وبالأمس جئنا على ذكرك، فقالت السيدة ميراي إنك لطيف وفهيم وكانت تنظر إلى إمكانية ترقيتك في المستقبل وإسناد عمل آخر لك.

والأستاذ زكار هل هو منزعج..؟

لقد تساءل عن سبب تركك المدرسة، وأعتقد أنه لا يكرهك.

والأخبار الأخرى..؟

أطرقت برأسها ولم تجب.

ما بك، ارفعي راسك.

رفعت رأسها، كانت الدموع تترقرق في عينيها.

هل من جديد.. ماذا بك..؟

إنني يا خالد أحببتك من كل قلبي وأنت تعلم ذلك، إلا أن الظروف التي تباعد بيني وبينك أقوى، زوجي قد تفاهم مع أهلي، وهم مع عودتي إليه، كما أنك تنوي أن تعود إلى بلدك ولا تنوي أن تستقر في لبنان، والآن أعود وأعرض عليك الأمر.. إذا كانت لديك النية أن تستقر في لبنان وتتزوج فإني مستعدة لمخالفة رأي أهلي وأصر على عدم العودة إليه.

لقد شرحت لك ظروفي من قبل، إنني لا أستطيع أن أبقى هنا بشكل دائم، إن لدي وضع وظيفي لا بد من تسويته وإثبات براءتي مما حاولوا أن يلصقوه بي مهمٌ جداً، أما علاقتي بك فهي أمر مستقل عن ظروفي الخاصة، فأنا أتصرف تبعاً للظروف ولا أعرف متى يحين موعد العودة إلى بلدي.

تفضلا واشربا عصير البرتقال، يمكن له أن يرطب فمكما من جفاف الريق..

قال محسن مداعباً عندما أحضر كوبي العصير وانصرف معتذراً بعد أن لاحظ على وجهيهما آثار التوتر.

زوجي يرغب في السفر في نهاية الأسبوع وهو مستعجل لكي يعرف فيما إذا قررت العودة له أم لا، كذلك أهلي وما دامت الظروف هي أقوى من أن نتجاوزها فإني مضطرة للعودة إليه والسفر معه.

أتمنى لك السعادة، وأرجو أن تتواصل الرسائل بيننا.

يمكن أن لا تسمح لي الظروف بأن أراك ثانية قبل السفر أود أن أقول لك الآن وداعاً وستبقى ذكراك في بالي صورة جميلة دائماً.

وداعاً.

* * *

كان صوت عهد يلعلع في مكتب سكرتيرة المدير العام.

أين الأستاذ حسن.

لديه اجتماع.

قولي له إن عهد يريد أن يراه.

لا أستطيع الآن أن أقاطعه وهو في الاجتماع، يمكنك أن تعود بعد الظهر إذا أردت أن تراه.

أريد أن أراه الآن، رفع عهد صوته.

طيب.. طيب، لا ترفع صوتك سأحاول أن أخبره.

وفجأة فتح باب مكتب المدير العام وأطل منه السيد حسن أفندي متسائلاً:

ماذا يوجد يا عهد..؟

أريد أن أعرف ماذا اتفقتم مع السيد مسعد دون علمنا.

اسكت يا عهد واذهب إلى عملك، سأقول لك فيما بعد.

أنا أحذركم، إذا وقعت فسأجعل الجميع يقعون معي.

اذهب يا عهد الآن وانتبه لما تقول.

قفل عهد راجعاً من مكتب المدير العام وهو يشتم ويلعن في بهو المؤسسة وكان ملفتاً لكل من رآه. هذه الجرأة والقحة منه في أن يرفع صوته في مكتب المدير العام الذي يخشى بعض المدراء من أن يدخلوا عليه دون إذن مسبق.

تابع المدير العام الاجتماع مع أعضاء مجلس الإدارة معتذراً لسماعهم صوت عهد المرتفع في المكتب.

ـ آسف من أجل هذا الموظف الذي اختلف مع بعض زملائه ولم يجد إلا أنا لأعالج له مشكلته..!

وهذا يجعلني أتساءل عن عمل المدراء الفرعيين ورؤساء الأقسام ماذا يفعلون..؟ من المفروض أنهم يعالجون مثل هذه المسائل الخاصة بالموظفين.

ـ المدير العام الناجح يا أستاذ هو من يهتم بشؤون موظفيه.

علق أحدهم بتملق.

ـ شكراً.. شكراً، ماذا أعمل، المسؤولية تتطلب أن تكون مثل المختار بالنسبة لمرؤوسيك.. فلنتابع الاجتماع..

تعلمون أن إنتاج المؤسسة قد ازداد في الفترة الأخيرة وذلك للتعويض عن الخسائر التي حدثت نتيجة الحريق، والموضوع بيد التفتيش الآن الذي يتابع عمله في معرفة أسبابه، كما أننا من ناحية أخرى قد قطعنا شوطاً في التخلص من العناصر الضارة، أمثال الذين اتهموا في حادث السرقة التي حدثت منذ سنتين، لكنني أحذر من تسريب أية معلومات مما يدور في اجتماعات مجلس الإدارة إلى عناصر من غير أعضاء المجلس لأن المعلومات

المتسربة يستخدمها البعض ضدنا وخاصة أن التفتيش يريد أن يتمسك بأي شيء حتى يلقي المسؤولية على مجلس الإدارة ويتهمه في أحسن الأحوال في التقصير.

* * *

كان المحقق قد تأكد من أن الحريق الذي أصاب مستودعات المؤسسة ناجم عن مادة سريعة الاشتعال تم وضعها في أمكنة متعددة بحيث تطال النيران جميع الأمكنة المراد إحراقها. لذلك ركز في التحقيق على المسؤولين عن المستودعات عهد ومساعده وائل وعناصر الحراسة الليلية.

متى غادرت المؤسسة يا عهد ليلة الحريق..؟

الساعة العاشرة ليلاً يا سيدي.

متى ينتهي دوامك المعتاد..؟

أنا مسؤول المستودعات ودوامي يبدأ من الساعة السابعة صباحاً وينتهي الساعة الثالثة بعد الظهر وبحكم مسؤوليتي فإني أعود إلى المؤسسة إذا كان هناك عمل ضروري حيث أبقى إلى العاشرة ليلاً أحياناً لتأمين لوازم العمل.

هل شاهدك أحد عندما غادرت المؤسسة؟

نعم يا سيدي موظف الاستعلامات.

ثم يتابع المحقق تحقيقه مع وائل:

وأنت يا وائل.. هل يوجد معك نسخة من مفاتيح المستودع.

لا يا سيدي.

في تقرير سابق للتفتيش توصية بعدم إسناد أي عمل لك له طبيعة مالية.. لماذا بقيت تعمل في المستودع.

لم يقل لي أحد بأن أغير عملي.

كم سنة مضى عليك وأنت في المستودع.

سبع سنوات يا سيدي.

حسناً سنتابع حديثنا فيما بعد..

* * *

دخل الآذن إلى مكتب الأستاذ سامي وأبلغه ضرورة حضوره الاجتماع الساعة الثانية عشر ظهراً في قاعة اجتماعات أعضاء مجلس الإدارة.

بدأ الاجتماع بحديث للأستاذ حسن عن وضع التحقيقات الجارية مع المسؤولين عن المستودعات وحادثتي السرقة والحريق اللتين حدثتا في المؤسسة.

تحدث الأستاذ سامي بدوره عن وضع المؤسسة وطلب أن يستدعي السيد مسعد الذي يعتبر الوكيل الأساسي لمنتجات المؤسسة للحصول على إفادته في هذا الخصوص.

لا.. لا داعي لذلك، هو ليس من عناصر المؤسسة والتحقيق خاص بموظفي المؤسسة.

لكن البضاعة التي ننتجها يعتبر هو من كبار الموزعين لها وينبغي أن يحاط التحقيق علماً بذلك.

البضاعة التي يأخذها الوكيل مسعد تتم بموجب فواتير رسمية.

لكن السعر الذي يبيع فيه هو أقل من السعر الرسمي.. فما هو تفسير ذلك..؟

ليس لدي علم بذلك، ثم أضاف.. لا أعلم فيما إذا كان الأستاذ نزار لديه علم بذلك..؟

لا يعقل أن يشتري من المؤسسة بسعر معين ويعود يبيع البضاعة بسعر أرخص.. هذا الأمر منافي لأبسط قواعد ا لتجارة.

أنت تقول إذا كان الأمر كذلك فإن الوضع ليس طبيعياً ولهذا السبب ينبغي أن يسأل الوكيل.. قال السيد سامي.

أنا أضم صوتي إلى جانب صوت السيد سامي قال ممثل التنظيم النقابي.

- لكن التحقيق مع وكيل المؤسسة يمكن أن يسيء إلى سمعة المؤسسة في تعاملها مع المتعاملين معها.

- بماذا يسيء.. نحن نريد جلاء الحقيقة ونعرف كيف تسير الأمور في المؤسسة.

إن التجار عندما يعلمون بوجود تحقيق في المؤسسة بشأن السرقة والحريق وأن ذلك يشمل الوكلاء والمتعاملين مع المؤسسة، فإنهم سوف يعزفون عن التعامل مع المؤسسة وبالتالي فإن البضاعة سوف تتراكم في مستودعاتنا وتخسر المؤسسة في هذه الحالة.

وأنا أيضاً أقترح أن يتم التحقيق مع وكيل المؤسسة لأن كسر الأسعار في السوق يؤدي إلى خلل في شؤون التخطيط لأن السعر الذي تبيع فيه الآن يصبح من المتعذر البيع فيه بالمستقبل.

وعندما انتهى الاجتماع الساعة الثالثة بعد الظهر وبينما كان السيد سامي يسير في بهو الشركة شاهد آمال تتهيأ للانصراف..

آمال.. على مهلك

أهلاً أستاذ سامي.

أريد أن أراك.

الآن.

اسبقيني إلى المكان الذي التقينا فيه المرة السابقة.. أريد أن أراك لنتحدث معاً.

حاضر، قالتها بعد تردد.

وبعد أقل من نصف ساعة كانا معاً في السيارة..

أين تريدين أن نذهب..؟

لا أعرف.. امض في الطريق الخالي.

سنذهب إلى جسر الهامة حيث الهواء منعش والمنظر جميل.

هل كان لديكم اجتماع لمجلس الإدارة اليوم..؟

نعم.. اجتماع مهم.

هل حصل شيء معين.

نعم، وكيل المؤسسة مسعد.

ماذا به..

عند جهينة الخبر اليقين، لقد طالبنا بأن يشمل التحقيق وكيل المؤسسة سعد لأن عنده تنتهي معظم خطوط المشكلات التي تعاني منها المؤسسة، السعر هو محصل كل شيء، ومن خلال معرفة آلية السعر يمكن معرفة آلية الإنتاج والشيء الملفت للنظر أن السوق مليء بالبضاعة رغم احتراق كميات كبيرة في الحريق الذي جرى، وأن الأسعار هي دون الأسعار المقدرة من قبل المؤسسة.

ـ بماذا تفسر ذلك..؟

ـ أفسره، أن هناك لعبة يلعبها مسعد مع بعض أعضاء مجلس الإدارة والمستودعات بحيث يتسلم هو كميات بضاعة أكثر من البضاعة المحددة بالفواتير أو أن كميات البضاعة المقدر أنها احترقت تختلف عن الكميات المحروقة فعلاً.

الآن فهمت.. وما العمل برأيك..؟

ينبغي إحاطة التفتيش علماً بهذه الأمور ونتساعد معاً في الكشف عن الجرائم التي حدثت من السرقة التي تمت إلى الحريق المدبر وتلفيق التهم ضد الأشخاص الأبرياء.

بما فيهم خالد..؟ قالت ذلك على شيء من الاستحياء.

طبعاً بما فيهم خالد.

هل تساعده من كل قلبك..؟

بالتأكيد، خالد من الشباب الناجحين وأنا أكن له كل الاحترام وأعتبر أنها مؤامرة دنيئة نفذت ضده مع الأشخاص الذين معه.

أوقف السيارة والتفت إلى آمال..

آمال.. وحاول أن يمد يده إلى كتفها.

أرجوك.. لا داعي.

أرجوك أنت.. إني متيم بك.. هل تعلمين؟

ما معنى هذا..؟

زفر بنفاذ صبر..

أنا أعلم أن هناك عقبة تحول بيني وبينك وهي كونك مرتبطة.. لكن ألا نستطيع إيجاد حلٍّ ينسجم مع ظروفنا نحن الاثنين.

أنا لا أقبل أن أرتبط بعلاقة جديدة وبنفس الوقت ارتبط بعلاقة ثانية.

ما دمنا نحن متفقان.. لماذا تصعبين الأمر..؟

كيف ذلك.. لا يجوز أن نتجاوز الواقع، ولسنا بحاجة إلى المزيد من المشاكل، وأنا إذا أردتك فإني أريدك وحدي كصديق أركن إليه.

هز رأسه اعترافاً بصحة كلامها وموقفها وسألها:

أما زلت تحبين خالد..؟

صمتت.

إني أقدر موقفك وأحسده عليك، وللأسف إن الإنسان منّا في أحيان كثيرة يجد شريكه المناسب في الوقت غير المناسب..!

لا تزعل.. إنني أعزك وأحترمك ، ربما لو كان الظرف مختلفاً لما اخترت غيرك..!

أنا أكتفي بهذا الإطراء ولا أحب أن أكون ضيفاً يأتي إلى الوليمة دون دعوة كما أنني لا أحب أن أكون الضيف الذي يأتي إلى الدعوى متأخراً.

سمعت أنك كنت تحب فتاة رائعة.. لماذا لم تتزوجا..؟

ظروف..

هكذا مجرد ظروف تحول بينك وبينها، إني أراك إنساناً رائعاً، لطيفاً، ومثقفاً، وأتوقع أن تكون حبيبتك بنفس المستوى، أليس كذلك..؟

كانت هكذا نعم..؟

لم تجبني سألتك لماذا لم تتزوجا..؟ هل يوجد ما يمنع من أن تفضي لي ببعض مكنونات صدرك..؟

لا.. وإنه ليسرني أن أتحدث إلى إنسان رقيق وحساس مثلك حول أموري الشخصية، لكن يا صديقتي.. اسمحي لي أن أخاطبك بهذه الصفة.. إنني لا أود أن أعيد سرد انطباعاتي عن علاقة كنت أقدرها أن تكون حميمة.

ماذا حصل بينكما..؟

كنت أحبها، ولقد راودتني أفكارٌ بأنها هي الإنسانة التي أبحث عنها.. تفهمني وأفهمها، ولها قدر من الذكاء والحساسية، فهي تتمتع برهافة الحس وشدة الانتباه وهذه الصفات إذا ما أضيف إليها رقة الشعور ورقة

العاطفة فإن المرأة تكون هي المبتغى والمطلوب من الرجل، إلا أن الأمور لا تجري يا عزيزتي وفق ما يشتهيه الإنسان، فقد كان للمرأة التي أحببت أسرة يتجذر فيها الإحساس بالكبر والتفوق.

وهل هي كانت تمارس هذا الشعور؟

كنت ألحظ هذا الأمر أحياناً، فهي إرضاءً لي لم تكن تلك الصفة بارزة بشكل واضح إلا أن التعامل مع أسرتها، والدها وأخيها، كانت تبرز هذه الصفة القبيحة بشكل فج وواضح، فهم ما زال لديهم اعتقاد بأنهم سليلو طبقة ارستقراطية، وزاد في شعورهم بالكبر هو معرفتهم منبتي الطبقي الفقير والذي أفتخر أنا بانتمائي إليه إلا أن الأمر بالنسبة إليهم كان له مفعول عكسي، وعلى هذا فإني أصبحت أقل حرصاً على علاقة قد تحمل لي المتاعب والإذلال بالمستقبل، فنحن شرقيون بطبيعتنا وإحساس الرجل منا يكون قوياً ولا يسمح أحدنا أن تعامله زوجته أو أهلها بشيء من الترفع أو التكبر.

كانا قد وصلا إلى جسر الهامة حيث ترجلا من السيارة وصعدا إلى الرصيف حيث استندا على كوعيهما فوق حديد الدرابزون وأخذا يمعنان النظر في المنظر المرتسم أمامهما حيث يقبع تحت جسر فوق نهر بردى الذي يبدو كجدول هادئ، رصين، يسير الهوينى بين أشجار الصفصاف القائمة حول ضفتيه والتي تبدو كأشجار قزمة لهول الارتفاع، وفي الأفق بدت غيمة تحمل كميات من المطر بدأت تنفثه على شكل رذاذ أخذ يسقط على الوجه كشعيرات مائية صغيرة تتقاطع مع أشعة الشمس الآخذة بالانحناء جهة الغرب كأنها تقول إن وقت العصر قد أزف وبعد

قليـل تختفـي وراء الجبـال لتحـل سـكونة الليـل بأسـراره الهاجعـة وراء تعرجات النهر ووشوشات شجر الصفصاف عوضاً عن صخب النهار ويقظة كائنات الطبيعة الحية.

ثـم توقـف عـن الحـديث نـاظراً إلى الأمـام بينمـا كانـت الـريح تعبـث بخصلات شعره وربطة عنقه التي ألقتها الريح فوق كتفه وفجأة سألها:

هل تبقين مخلصة لخالد رغم أن عودته غير معروفة..؟

سيعود قريباً.

هل تلقيت رسالة جديدة..؟

نعم.. وأفترّ ثغرهـا عـن ابتـسامة، لقـد وصـلتني رسـالة منـذ أيـام يقـول فيها إنه سيعود قريباً.

بعـد وجـوم اسـتمر بـضع دقـائق صـعدا إلى الـسيارة وقفـلا عائـدين إلى المدينة.. وبينما كانت عجلات السيارة تدرج على الطريق كان كلٌّ منهما ساهماً في أفكاره وانطباعاته الخاصة عن الحديث الذي دار بينهما في الوقت الذي كانت تتصاعد فيه أغنية من مذياع السيارة تقول كلماتها:

شو صار تا طيور المسا فلوا

شو صار تا زهور الصبح ذلوا

شو صار هالغيمات راحوا لبعيد

وما عاد عاتلالنا هلوا

- ٤ -

كان جو المطعم المشحون بأحاديث الزبائن ورائحة المشروب المنتشرة من الزجاجات المفتوحة على الطاولات وسحائب الدخان المتصاعد تشكل نوعاً من الكوكتيل أو خليطة التوابل تعبق في الأنف وتدخل في الخياشيم حتى يكاد أن يعطس المرء لشدة قرصها أو أن تسبب حرارتها سيلان الأنف والدموع من العينين.

على هذه الطاولة يجلس مجموعة من الزبائن بينهم رجل في الخمسين من عمره ذو لحية صغيرة سوداء خالطها بعض الشيب يتحدث مفاخراً بعلاقاته العاطفية وكيف أنه لا يهمه في هذه الدنيا سوى أمرين اثنين فقط.. الأول بطنه والثاني ذكره..! وعلى طاولة أخرى يجلس ثلاثة رجال يبدو عليهم الوقار أكثر من الطاولة الأولى بينهم واحد من الذين أنفقوا سنوات طويلة في أميركا يتحدث عن أميركا والمجتمع الأمريكي ويشيد به كمجتمع مثالي لمن ينشد الغنى أو طموحاً في هذه الحياة وختم حديثه بقوله الذي يمكن أن يعتبر قولاً مأثوراً.

(من يريد أن يأكل خبزاً فليمش مع أميركا..!)

اقترب خالد من بار المطعم وأسند مرفقيه إلى الطاولة وطلب من عامل البار قدحاً من النبيذ وقد أشعل سيجارته وسحب منها نفساً عميقاً.

لاحظ محسن كيف أن خالد قد استبد به الشوق وأخذت خيالات

الصور والذكريات تداعب مخيلته في تلك الوقفات التي يقفها متأملاً، وتلك الصفنات التي يحدق بها في زاوية معينة نافثاً دخان سيجارته ومطلقاً زفيراً حاداً.

ما بك..؟

سأله وقد ظهر شيئاً من الابتسام الخفيف على فمه ينم على أنه يعرف أن المرأة هي ما يفكر بها..!

لا شيء..

هل تفكر في جمانة..؟

لا.. جمانة أصبحت من الماضي، طيفاً من أطيافه وهي الآن في أميركا مع زوجها العتيد..! أتمنى لها السعادة في عودتها إلى زوجها، وأنا لا أحقد عليها، لكن أرجو أن لا تذكرني بها قدر المستطاع، فهي الآن بالنسبة لي شبح من الماضي.

بمن تفكر إذن..؟

أفكر في إنسان آخر تأخرت في الاهتمام به.

بمن..؟

في آمال.. تلك الصديقة والزميلة التي لم أقدم لها ما ينبغي أن أقدمه، ما كان يجب أن أتعامل معها بلغة جافة كما عاملتها سابقاً فهي تستحق معاملة أفضل؟

ـ ثم أردف.. ما دامت العاطفة جياشة أعطني ورقة وقلماً لأكتب لها رسالة.

الآن..؟

ـ نعم.. ومضى إلى ركن هادئ نوعاً ما وبدأ يكتب رسالته إلى آمال.

ـ عزيزتي آمال..

تباً لهذا التعبير، ثم قام بشطب العبارة وفكر قليلاً في عبارة جديدة..

ـ غاليتي آمال.. هكذا أفضل.

أكتب إليك وأنا كلي شوق.. الخ

ثم ختم رسالته

قبلاتي الحارة لك

المخلص خالد

* * *

ربما كان للرسالة التي وصلت إلى آمال قبل أيام من خالد مفعول الكابح في السيارة الذي يكبحها من الاندفاع ويمنع تدهورها على الطريق..! هكذا فعلت الرسالة بأن أوقفت انسياق آمال واندفاعها في صداقتها مع الأستاذ سامي التي بدأت تأخذ ملامح علاقة حب بين الطرفين وفي أحسن الأحوال علاقة تسودها الملاطفة والانسجام المتبادل، لقد كانت الرسالة حجرة صغيرة أمام عجلات العلاقة الآخذة بالنمو بينهما، ولهذا أحس السيد سامي بغصة في حلقه عندما أكدت له آمال أثناء نزهتهما على جسر الهامة بأنها تلقت رسالة منذ أيام من خالد يؤكد فيها بأنه سوف يعود قريباً.

السيد سامي ليس أنانياً لكي يستأثر بحبيبة أحد الأشخاص مستغلاً

فترة غيابه عن حبيبه أو أن يستغل عدم وجود آلية التعبير المعتادة بينهما عن الحب. وربما يعتبر السيد سامي أن له الحق في أن يعيش علاقة حب تلبي طموحه وطاقته العاطفية في الحب الإنساني والتمازج العاطفي الذي يقوم بين رجل وامرأة، إلا أنه في هذه المرة قد طرق الباب الخطأ..! فقد كان الباب موصداً، ولو نمّ قليلاً عن إمكانية فتحه، إلا أنه بقي موصداً لا يسمح لأحدٍ ما بالدخول، وها هو صاحب البيت آتٍ قريباً، وما على الآخرين إلا الانسحاب ومباركة عودة الغائب.

لن يسيء إلى تاريخه وحظه في الحياة، إنه نصير المظلومين ومعين كل الذين يحملون قيماً حية وأخلاقاً نبيلة فلا ينبغي له أن يقطع علاقة حبٍّ نبيلة بين إنسانين رفيعي المستوى بالمنظور الفكري والأخلاقي، بل ينبغي عليه أن يعمل لجمعهما حتى ولو كان ذلك على حساب عواطفه وقلبه، وعلى حساب تلك الفرصة التي أوحت له أنه قد وجد الإنسانة التي طالما حلم بها وتمناها قلبه.. إلا أن الخطأ لازمه هذه المرة أيضاً.

المرة الأولى عندما اختار المرأة التي ثبت أنها ليست الإنسانة التي تناسبه.. والثانية امرأة ليس بنوعية المرأة التي أراد وإنما بالتوقيت..! فقد كان التوقيت خاطئاً، الأمر الذي جعله يعتقد بأن مسألة السعادة مع المرأة عموماً والزوجة خصوصاً هي مسألة حظ، حيث أن لكل إنسان نصيبه من السعادة، ويحدث أن نجد أحياناً إنساناً بسيطاً جداً ولم يتكلف أو يتعب في إقامة علاقة مع امرأة أو يتعب ويجهد نفسه لأجلها، نجد هذا الإنسان قد حظي زوجة يعيش معها حياة مملوءة بالسرور والسعادة.. وقد تجد مثالاً معاكساً عن إنسان يتصف بجودة الفكر وسعة الثقافة

وحصافة في الرأي إلا أن العلاقة العاطفية التي ينشدها لا يحظى فيها بالنجاح الذي ينبغي أن يكون عنواناً لمثل هذه العلاقات التي يكون طرفاها أشخاصاً على قدر من الوعي والثقافة.. ربما لأنهم يطلبون الكثير.. ويريدون من الشريك الآخر أن يكون كاملاً، وهذا من أصعب الأمور ربما لأن رهافة الحس التي لديهم والدقة في ملاحظة الأشياء هي ما يفسد صفو العلاقة ويخرج بها من البساطة والمغافلة إلى الملاحظة والمعاتبة.. لأن العلاقات العاطفية والزوجية خاصة تحتاج إلى شيء من البساطة والتغافل عن أخطاء الآخر والتغافل هنا هو معرفة الشيء وتجاهله لأن لكل امرئ نقائصه ولا يوجد إنسان كامل وينبغي التعامل على التكامل لا على النقائص.

ـ هل أنهيت الرسالة..؟

نعم..

ـ أراك قد أطلت الكتابة واستغرقت فيها، هل تختلف عن الرسائل السابقة.

نعم.

ـ إن رائحة الحب تفوح فيها، وإني أرى أن نصفك قد أصبح في دمشق وقريباً يمكنك أن تعود.

ـ ليس دائماً يا صديقي يجد الإنسان الشريك المناسب ثم لا تنسى أن لي قضية ينبغي لي أن أنهيها بشكل مشرف.

هل وردتك أخباراً جديدة.

نعم، لقد أوشكت الأطراف المتآمرة أن تتصارع مع بعضها البعض، فلا يخامرك الشك أن الباطل آيل إلى السقوط، لأن الظالمين يمكن أن ينجحوا

مؤقتاً في إقصاء الأخيار عن مواقعهم، لكن ولعلة في جبلتهم سيختلفون في اقتسام الغنائم وبذلك فإن بذرة الشر التي اجتمعوا عليها هي نفسها ستقوم بقسمتهم وكشفهم لبعضهم البعض.

- هل تستسلم لهذا القانون الذي يقوم مقام التطهر الذاتي من الشر؟ وبذلك فإننا نصل إلى نتيجة مفادها: أنه لا ينبغي أن نغضب ونناضل لإحقاق الحق ما دام الخير له تلك القوة الطاردة للشر..!

- ليس هذا يا عزيزي ما هو المقصود بكلامي.. الذي أردت أن أقوله أن هناك عوامل موضوعية وعوامل ذاتية لهزيمة الشر.. فالعوامل الموضوعية هي تلك القوة الدافعة كما سميتها أو الطاردة للشر إن شئت أن تسميها من بين أشكال الحياة وأنماطها وبالتالي فإن هذه الفكرة تلتقي مع فكرة التطهر الذاتي رغم أن هذه الفكرة على خطورتها ليست جديدة إذ هي إحدى ركائز أفكار الفلسفة اليونانية وخاصة الفيلسوف أفلاطون وقد تأثر بها كثيراً من الفلاسفة العرب ودخلت في صلب أفكار وعقائد بعض المذاهب الدينية. إلا أن هذه الفكرة تواجه معارضة من جمهور المؤمنين الذين يعتبرون أن الآخذ في هذه الفكرة يجعل من مسألة محاسبة الشر مسألة دنيوية وبالتالي يتساءلون إذا كان الحساب في المنظور الديني دنيوياً فأين هو دور حساب الآخرة الذي يعتبر هو الأعدل والأشمل للناس. على كلٍ لن نسهب في شرح أبعاد وجود هذه الظاهرة إنما أعود لأكمل حديثي عن مسألة هزيمة الشر.

بالإضافة إلى ما تقدم فإن هناك عواملَ ذاتية وهي ما نصطلح على تسميته (إنسانية) وهنا يكمن دورنا في مكافحة الشر، وعلى هذا الأساس

يتم قياس تفاضل البشر مع بعضهم البعض والذي يحدده الموقف مبدئي لكل إنسان من الشر، وما هو دوره في مسألة التغيير نحو الأفضل.

نحن نتفق على أن الفطرة الإنسانية خيرة بطبيعتها ذلك أن الخير والشر يشكلان الطبيعة الثنائية للنفس البشرية مع رجحان قليل للخير، وبفضل هذا القليل يستطيع الخير أن يتغلب على الشر في صراعهما الأبدي.

أعود وأختصر الفكرة.. إن جميع الناس مع بعض الاستثناءات المرضية يميلون للخير، لكن موقف كل إنسان من كيفية معرفته للخير تختلف عن الآخر، وهذه ناحية مهمة في تقييم البشر بين بعضهم البعض.

- أراك تقرأ كثيراً في الفلسفة اليونانية وأفكار المعتزلة.

- هؤلاء هم معلمو البشرية ولهم الدور الأساسي في إرساء بعض القواعد الأخلاقية لحياة الناس، وهم من الرجال الصالحين بالمعنى الديني..! هل تعلم يا صديقي أن فلاسفة اليونان قد توصلوا إلى التوحيد الغض للإله دون وجود رسالة سماوية أو نبوة..! وذلك عن طريق التفكير المحض واستخدام العقل والمنطق، ولهم دورٌ مهمٌ في تخليص التوحيد مما علق به من ممارسات وثنية كانت تمارسها كثير من الشعوب وذلك قبل وجود الرسالات السماوية.

حسناً.. حسناً.. العوامل الموضوعية تفعل فعلها في كشف الحقيقة وهزيمة الشر، أنت أرنا ما هي عواملك الذاتية التي تستطيع عن طريقها أن تهزم أعداءك.

علق محسن على تفلسف خالد بشيء من التهكم لإنهاء النقاش.

* * *

كانت الأوراق مبعثرة على الرصيف، وحقيبة يد سوداء قد طوحت بها الصدمة إلى مسافة بعيدة عن المكان الذي استلقت به الجثة متكورة على نفسها، لكأنما استشعرت الضحية برداً وتكورت في هذه الوضعية طلباً للدفء وهي تنام نومها الأبدي بينما كانت خيوطٌ من الدم غير المتخثر المنبعثة من رأس الضحية قد رسمت خطوطاً متعرجة على رصيف الشارع.

ارتفعت أبواق السيارات وسط الزحام الذي سببه تجمع المارة في مكان الحادث بينما انفرجت حلقة الزحام المحيطة بالجثة لتفسح المجال لضابط من الشرطة قد ترجل من سيارته مع بعض العناصر سائلاً:

هل رأى أحدكم السيارة الصادمة..؟

نعم.. أنا شاهدتها.

ما هو نوعها..؟

من نوع رانج.

ما هو لونها.

رمادية.

هل حفظت الرقم.

كانت اللوحة غير واضحة، ولم أتمكن من قراءة الرقم كاملاً وإنما حفظت منه ثلاثة أرقام هي ٩٨١...

كيف حصل الحادث؟

كنت ماراً أسير على الرصيف وكان الرجل الضحية يسير أمامي على بعد بين ١٥ ـ ٢٠ متراً وفجأة شاهدت السيارة الصادمة قد خرجت من

الشارع إلى الرصيف أمامي وصدمت الرجل من الخلف حيث ارتفع في الهواء وسقط بعيداً عن مكانه بما لا يقل عن عشرة أمتار..! ومن ثم عادت السيارة المذكورة إلى الشارع وهي تسير بسرعة كبيرة، وقد خفت يا سيدي خوفاً شديداً وقفزت إلى جهة اليمين حتى كدت أن أصطدم بجدار الرصيف.

فكر الضابط قليلاً ثم قال:

نستطيع أن نستنتج من خلال سردك للحادث أن عملية الصدم مقصودة..؟

لا أعرف.. لكن طريقة خروج السيارة إلى الرصيف وصدمها للرجل ومن ثم عودتها إلى الشارع يبدو أنه مقصود.

ثم أوعز الضابط إلى الشرطي المرافق

سجل اسم الشاهد واحتفظ به معنا لضرورة التحقيق الأولي ثم ابحث في جيوب الضحية عن هوية شخصية أو أية أوراق تثبت شخصيته.

ها هي يا سيدي هوية الضحية الشخصية وبطاقة عمل.

الاسم: عهد..

مكان العمل: مؤسسة

في اليوم التالي كانت أخبار وفاة عهد في حادث صدم قد انتشرت في المؤسسة.

ـ هل سمعت..؟ لقد توفي عهد في حادث سير البارحة.

ـ قولي قد قتل..

أجاب الأستاذ سامي آمال عندما أخبرته بما جرى لعهد.

ماذا تقول..؟

كما سمعت، هذا صحيح أكثر..

هل أنت متأكد من ذلك..؟

كما قلت سابقاً أنهم بدأوا بتصفية بعضهم البعض.

هل لديك إثبات في ذلك..؟

ليس بعد وإنما أنا أستنتج استنتاجاً ومقتله يقصد به إبعاد شخص يملك معلومات ضد من يعنيهم الأمر..

بماذا تفكر..؟

أفكر بأنهم ضربوا في مكان معين وينبغي علينا أن نضرب في مكان آخر، نضعفهم ونحرجهم أكثر.

أين تقصد..؟

عند الوكيل مسعد.

في اليوم التالي كان الأستاذ سامي يطرق باب المفتش:

تفضل..

صباح الخير حضرة المفتش.

أهلاً أستاذ سامي تفضل اجلس..

أنا كنت أنوي أن أزورك كي نتبادل وجهات النظر لما عرفته عنك من استقامة وحرصاً على المصلحة العامة.

ها قد أتيت بنفسي.

على كلٍّ سواء كان اللقاء عندك أم عندي الأمر واحد.. المهم أن نتعاون لما فيه الخير ونستطيع إجلاء بعض الغموض الذي يشوب هذه المؤسسة التي هي بحاجة إلى أكثر من مفتش يقوم بتنظيفها.

وأنا يسرني أن نتعاون في هذا الخصوص.

بصراحة.. ما رأيك بالأستاذ حسن..؟

من أية ناحية..؟

من ناحية الاستقامة والنظافة..

ليس لدي ثقة به، لكن ليس لدي ثبوتيات كافية تدينه.

الأستاذ نزار ما رأيك به..؟

إنه جشع وخبيث أكثر.

ومدير العلاقات..؟

على نفس الشاكلة، وهذه المجموعة شبيهة بكبة الصوف التي تلتف خيوطها على بعضها البعض بحيث إذا أردت أن تحلها صعب عليك أن تعرف من أين تبدأ.

ـ ما يشاع أن عهداً قد قتل، ما رأيك في ذلك..؟

إني مقتنع أن عهداً قد قتل.

من له مصلحة في ذلك..؟

الذين كان على علاقة ومصلحة معهم، وعندما اختلفوا في القسمة أصبح إزالة شاهد يدينهم عن الطريق أمراً منطقياً من وجهة نظرهم.

مثل من..؟

حضرة المفتش.. ماذا تعرف عن الوكيل مسعد..؟

أجاب الأستاذ سامي في صيغة سؤال..

أعرف أنه يستجر مواداً من المؤسسة وهو أهم الوكلاء المعتمدين من قبل مجلس الإدارة.

ـ إن الأمر أبعد من ذلك.

ـ أوضح أكثر من ذلك.

ـ البضاعة التي تنتجها المؤسسة تباع في السوق بسعر أرخص من الأسعار المقررة رسمياً. ما رأيك في ذلك..؟

ـ هذا غير منطقي، لكن يحدث في ظروف الكساد أن يبيع التاجر برأس المال أو يخسر أحياناً لقاء أن يسدد ديوناً واجبة الدفع عليه.

ـ هذا ممكن، لكن الوكيل مسعد ليس كذلك، يكفي أن تذهب إلى المصارف حتى تعرف رصيده من العملة الأجنبية ووفقاً لمعلوماتي فإن لديه رصيداً كبيراً في ذلك. وهذا يعني أنه ليس في ضائقة مادية حتى يقدم على بيع بضاعته بخسارة، والآن يوجد خلاف بينه وبين رئيس مجلس الإدارة والمدير المالي.

ـ ما هو سبب هذا الخلاف..؟

خلافهم يدور حول المصالح فقط.

ـ يبدو أنه يلعب في المؤسسة كيفما شاء..

ـ يمكن أن تعتبر ذلك أو بالأحرى يشكل هو وبعض أعضاء مجلس الإدارة رابطة متضامنة مع بعضها البعض لنهب المؤسسة.

ـ هذه معلومات خطيرة.. ماذا تقترح..؟

ـ أقترح أن تتم مداهمة مستودعات الوكيل مسعد دون سابق إنذار وتدقيق فواتير المواد للوقوف على واقع الحال.

هذا ما سوف يحصل.

* * *

في اليوم التالي كان التفتيش يقوم بمداهمة مستودعات الوكالة ويقوم المفتش بجرد المواد وتسجيلها والتدقيق في فواتير استجرار المواد من المؤسسة.

ـ لماذا هذه المعاملة يا أستاذ.. هل نحن لصوص..؟ إن فواتيرنا نظامية ونحن نتعامل مع القطاع العام.

إنني أعرف أنكم تتعاملون مع القطاع العام، ولأن القطاع العام أربح لكم في التعامل من القطاع الخاص. فالقطاع الخاص له مالك يحرص عليه، أما أموال القطاع العام فليس لها مالك يحرص عليها وهو في هذه الحالة مثل اليتيم لا يوجد من يدافع عنه.

ـ إني أحذركم حضرة المفتش إن مداهمة مستودعاتنا لن نسكت عنها ويمكن أن تكون لها عواقب وخيمة.

هل هذا تهديد..؟

ـ كما تريد اعتبره لكنني لن أسكت عن ذلك وينبغي عليك أن تعلم بأنني شخصية معروفة ولي حصانتي الاجتماعية التي لا أسمح بالمساس بها.

ـ حصانتك..؟ عن أي شيء..؟ هل لأنك حاصل على وكالة تعامل مع المؤسسة يكون لك هذه الحصانة.. أم أن لك صفة حقوقية ودولية حتى تكون لك هذه الحصانة..؟ وهذه الوكالة ينبغي أن يطبق عليها القانون كما يطبق على سائر الوكالات والمؤسسات..

ثم طلب من أحد مرافقيه..

أختم أبواب المستودعات بالشمع الأحمر حتى نرى القضية ونستجلي غموضها.

كان السيد مسعد ورجاله الذين تجمعوا من كل صوب يرقبون المشهد وقد ظهرت الشراسة على وجوههم وبدت سيماؤهم وقد علاها الهياج وأصبحوا مستعدين للانقضاض بإشارة بسيطة من إصبع مسعد إلا أنه آثر أن يسمح للجنة بالانسحاب دون حدوث صدام مؤثراً ربح المعركة بالطرق السلمية دون الحاجة إلى ارتكاب أعمال وحماقات تعقد الوضع المتأزم أكثر.

* * *

كان حديث الأستاذ حسن على الهاتف متوتراً عندما دخلت وصال إلى مكتبه، فهي لا تتحرج من الدخول عليه وهو يتحدث إلى أحد الضيوف أو في الهاتف ولا يمانع السيد حسن من ذلك إلا إذا كان حديثاً خاصاً جداً وطلب منها أن تخرج قليلاً على أساس أن وصال ليست غريبة وهي مطلعة على الكثير من الأشياء التي يحرص على أن لا يعرفها أحدٌ غيره.

ليس لدي علم أنهم سيداهمون وكالتك..

ثم أضاف بعد فترة استماع إلى المتحدث على الجانب الآخر:

كان يجب أن تكون متنبهاً ويقظاً أكثر من ذلك، لقد أثرت التفتيش والشرطة علينا وفتحت الأعين اتجاهنا. المفروض أن تلعب بهدوء ولا تقوم بارتكاب حماقات.

وبعد فترة استماع للطرف الآخر ليست بالقصيرة أضاف:

نحن لم نتفق على ذلك.. هذا عمل يمكن أن يطالنا جميعاً.. صحيح هو يستحق ذلك، لكن كان يمكن أن يعالج الأمر بطريقة أخرى. وأنا أحذرك، إذا تعرضت أنت للتحقيق في هذا الموضوع فإنني ليس لي علاقة في ذلك.

وجاء الرد.. إننا عملنا ذلك لمصلحتنا معاً.

- صحيح لكنني لم أطلب عمل ذلك وليس لي علاقة بما فعلتم.. من قام بذلك يتحمل المسؤولية وأغلق السماعة بقوة.

ماذا يوجد يا أستاذ حسن..؟

لم يجب بل بقي شارداً معلقاً نظره في زاوية السقف.

خير يا أستاذ حسن.. هل أستطيع تقديم مساعدة.. من كان على الخط..؟

إنه مسعد الزفت.. مسعد المصايب..

ماذا يريد..؟

لا شيء..

إنه من المعتمدين لديك وإنك تثق به كما أعلم..

صحيح.. لكنه ارتكب حماقات يمكن أن تودي بنا إلى الهاوية.

لهذه الدرجة..؟ إنني أعرف إنه سعيد في حياته وعلامات السرور تبقى ظاهرة عليه ويحب المرح والفرفشة ويلعب بالملايين لعب فما هو السبب في أن يتصرف في حماقة؟.

يبتسم المدير العام ابتسامة فيها شيء من السخرية لكلام وصال تنم عن مقدار جهلها بالناس والسطحية التي تحكم فيها على الأمور ويعلق:

ألا تعلمين أن الناس الذين يملكون الملايين هم أكثر الناس حماقة.. وهؤلاء لكي يزيدوا ملايينهم ملاييناً أخرى يمكن أن يقوموا بأفعال طائشة.. !

قال ذلك بشيء من الحكمة وأضاف:

أخشى أن يكون له علاقة بمقتل عهد.

ماذا..؟

كما قلت لك..

ـ هل هذا مجرد تخوف منك.. أم أن هناك شيئاً ثابتاً في هذا الخصوص..؟

لا أعرف.. لكن التحقيقات التي قامت بها الشرطة بينت أن الأرقام الأولى للسيارة التي قامت بالحادث هي من سيارات الوكالة والتحقيق يريد أن يتأكد من هذا الأمر عن طريق سائق السيارة.

السائق.. ألم يسألوه..؟

متغيب عن العمل وفي إجازة طويلة.

فكرت وصال من أين له أن يعرف في هذه التفاصيل ألا يمكن أن يكون أيضاً له علاقة بما حدث..؟

وكأن الأستاذ حسن أدرك ما يدور في خلدها فقال موضحاً ونافياً الشبهة عنه.

أنا أعرف هذه المعلومات يا آنسة وصال من خلال حديث مسعد الهاتفي معي.. وقبل ذلك لا أعلم شيئاً أكثر مما يعلمه أي عامل في هذه المؤسسة.

- أعرف ذلك يا أستاذ، ولم يدر في خلدي ما تظن به.

- أقول ذلك على سبيل التوضيح لا أكثر.

في هذه الأثناء سمعت جلبة في الخارج.

اقترب السيد حسن من النافذة لينظر ماذا يجري في الخارج..

كانت سيارة لاندروفر قد توقفت في فناء المؤسسة وقد ترجل منها عدد من الرجال المسلحين الذين أخذوا يصعدون درج الطابق الثاني في مبنى الإدارة.

ويظهر الأستاذ نزار يقف إلى جانب السيارة مع بعض أشخاص آخرين وهو يتحدث عن أمرٍ ما بحدة وانفعال..

ضرب الأستاذ حسن على الجرس منادياً المستخدم.

سالم.. يا سالم.. أين أنت..؟

جاء سالم مهرولاً في بهو المبنى وفتح باب مكتب الأستاذ حسن..

نعم يا أستاذ.. ماذا تريد..؟

ماذا يوجد يا سالم.. من هؤلاء المسلحون..؟

وقبل أن يجيب سالم على سؤال المدير اقترب الرجال المسلحون وأبعدوا سالماً عن الباب يتقدمهم ضابط بلباس مدني..

خير إنشاء الله.. ماذا يوجد..؟

حسن أفندي.. أنت موقوف..!

موقوف.. لماذا..؟

لضرورات استكمال التحقيق في مقتل المدعو عهد.

ليس لي علاقة بهذا الأمر.

يمكنك أن تقول ذلك للقاضي.

حسناً أنا أذهب بنفسي إليكم أفضل من أن يراني الموظفون مساقاً معكم، من أين أنتم..؟

لا يهم أن تعرف من أي مركز.. دعك من المظاهر الخداعة..

حسناً.. لحظة حتى أغلق المكتب وآخذ المفاتيح كما اسمحوا لي بأن أجري مكالمة هاتفية مع المحامي.

أترك كل شيء كما هو، يمكنك أن تجري مكالمة من عندنا في المركز.

خرج حسن أفندي مطأطئ الرأس مساقاً مع الدورية إلى السيارة المنتظرة في الخارج بينما كانت جموع الموظفين تطل من النوافذ والشرفات وهي تتقاذفها التكهنات حول التهم المنسوبة للسيد حسن ومساعده السيد نزار.

ـ لقد اكتشفوا أنهم وراء حادث السرقة الذي جرى منذ سنتين..؟

ـ سمعت أن التفتيش قد اطلع على الحسابات السرية لهم في البنوك الأوروبية والأميركية..

ـ سمعت أنهم اختلفوا على الحصص ووشى بعضهم ببعض..؟

كانت وصال ترتجف لشدة التوتر والانفعال من الموقف الحاصل حتى بدت كأنها مريضة.

ما بك يا وصال.. هل أنت مريضة..؟

أنا تعبة فقط.

لماذا.. هل أنت متأثرة لهذه الدرجة بشأن الأستاذ حسن..؟

ليس من أجله.. لكنني متأثرة في نتيجة الأعمال التي كانوا يقومون بها، وهذه النتيجة السيئة التي آل أمرهم إليها ويعجب الإنسان أن مدير عام طيلة ثلاثين عاماً ينتهي أمره بهذا الشكل المذل والمهين.

في هذا معك حق.. لقد ظلموا أناساً كثيرين، وتسببوا في خراب العديد من بيوت الناس.

ـ ٥ ـ

كان عهد قد استشعر خطراً عندما أخذت دوائر التحقيق تضيق حوله في جريمة الحريق المفتعل في المؤسسة حتى أنه لاحظ أن إدارة المؤسسة تقوم بتوجيه التحقيق نحوه على أنه المسؤول المحتمل عن تلك الجرائم، وكان لخلافه مع المدير العام في مكتبه وتهديده بأنه يستطيع

أن يمحوه من الوجود ردٌ على مجاهرته بأنه على استعداد لكشف العلاقة الخفية بين بعض أعضاء مجلس الإدارة والوكالة التي يديرها السيد مسعد ، وعلى هذا فقد قام بكتابة المعلومات المهمة التي تدين كلاً من المدير العام للمؤسسة وصاحب الوكالة السيد مسعد وأودع هذه المعلومات لدى زوجته التي لم يخبرها بمضمونها ، وإنما قال لها :

إذا حصل شيئاً، فبإمكانك أن تأخذي هذه الرسالة إلى الشرطة فقط.

تضمنت الرسالة معلومات مهمة عن السرقة والحريق المفتعل في مستودعات المؤسسة وكيف تم تلفيق التهم لخالد وزملائه وكيف أن البضاعة كانت تسلم للوكيل مسعد بكميات مختلفة عن الكميات الموجودة في الفواتير النظامية وتفوقها أضعافاً وذلك بطلب شخصي من المدير العام أو من بعض أعضاء المجلس الآخرين الذين يتولون الطلب بتحميل البضاعة والكميات التي يريدون وبمعرفة المدير العام.

ولتغطية هذه السرقات لا بد من إحداث حريق يغطي هذه الكميات التي تم إخراجها وإنزالها إلى السوق دون فواتير رسمية.. وكذلك يقوم الحريق بالدور المطلوب من خلط الأوراق والتعمية على من يريد معرفة كميات البضاعة المسحوبة من المستودعات وكميات البضاعة المتبقية.

جرى التحقيق مع المتهمين دون إطلاعهم على وجود الرسالة التي كتبها عهد وقد اطلعت الشرطة على مضمونها.

يا سيد مسعد: لقد بلغت الكميات المضبوطة في مستودعاتك ٢٢٠٠ طن، هل هذا صحيح..؟

نعم.

وقد بلغت كميات المواد المنتجة من معامل المؤسسة خلال الفترة الواقعة من ٢/١ إلى ١٢/١ ألف طن على أساس أن الإنتاج الشهري هو ١٠٠ طن..! هل تستطيع أن تفسر لنا سبب وجود هذه الكميات الكبيرة في مستودعات وكالتك حتى لو احتفظت بالمخزون كاملاً دون أن تطرح منه شيئاً في السوق..؟

إني أحتفظ دائماً بكميات كافية في مستودعاتي من البضاعة..!

لكن السوق غارق في البضائع، وأسعارها أقل من الأسعار المعتادة.

يمكن أن يكون هناك تهريب من الخارج..

لقد أحضرت دورياتنا عينات من البضائع الموجودة في السوق وهي جميعها من إنتاج المؤسسة وتحمل علامتها التي تقوم وكالتك بتسويقها في السوق وعلى حد علمنا لا يوجد بضاعة أخرى بديلة تجعل الناس يعزفون عن شراء بضاعتكم.

ـ اسألوا الشركة، يجوز أنهم هم من قام بطرح كميات إضافية في السوق دون علمي، وهذا مخالف للعقد الجاري بيني وبين المؤسسة.

ـ ألست الوكيل الحصري..؟

ـ نعم.

ـ كيف يجوز أن يطرحوا البضاعة دون أن تمر عن طريقك؟

إنهم يغشونني ويمكن أن يكون عهد أو وائل قام بطرح البضاعة بنصف القيمة..!

ـ نكمل حديثنا معك فيما بعد والآن لنتحدث مع السيد حسن أفندي المدير العام..!

ـ السيد حسن أفندي.

ـ نعم

إن السوق غارق ببضاعتكم، من أين تأتي الكميات الزائدة إلى السوق برأيكم..؟

لا أعرف.

وبعد تفكير قصير أجاب بتلعثم:

إذا كان هناك أشخاص يمكن أن يكون عهد أو وائل أو أحد غيرهم..!

حسناً.. لنتحدث قليلاً مع السيد نزار معاون المدير العام..

تفضل..

ألم تختلف مع السيد حسن أفندي حول الحصص المقدمة من وكالة السيد مسعد إلى السيد حسن دون علمك.

لا.

وإذا كان هناك من يشهد على عكس ما تقول.

إنه كاذب.

حسناً.. هل لك أن تفيدنا من أحرق المستودع..؟

لا أعلم.

لكي نريحكم أيها السادة من عناء الاستمرار في الكذب الذي لا طائل منه، وأنكم الآن تسبحون في مياه ضحلة وقد بدت عوراتكم ولا داعي

لاستمرار المخادعة فإني أقول لكم إن عهد هو من قام بإحراق المستودع.. لكن السؤال من أمره بذلك..؟

لا أعلم.

من له مصلحة في مقتل عهد..؟

لا أعلم.

ثم يوجه المحقق حديثه إلى حسن أفندي:

إن عهد يتهمك أنت والوكالة التي يرأسها مسعد بأنكما وراء حادثي السرقة والحريق اللذين حصلا في المؤسسة ويتهمكما بقتله فيما لو حصل له ذلك.

هذا تلفيق غير صحيح.

لماذا قام عهد بكتابة هذه المعلومات التي تدينكم وأودعها في مكان أمين وطلب أن تحضر إلى الشرطة إذا حصل له أي شيء مكروه..؟ لقد كان يتوقع ذلك ومنكم أنتم تحديداً.

ثم طلب المحقق إحضار وائل..

وعندما دخل سأله حسن أفندي:

وائل.. ماذا تفعل هنا..؟

دعه.. ولا تتكلم دون إذن مني.

حاضر..

أنت تقول إنه ليس لك علاقة في مقتل عهد..؟

نعم يا سيدي.

لكنك اعترفت بقيامك بإتلاف المستندات القانونية التي أدت إلى إدانة خالد وزملائه بعد حادث السرقة.. أليس كذلك..؟

نعم يا سيدي.

من أمرك بذلك.

السيد حسن أفندي والسيد نزار.

هذا كذب، هذا مدسوس عليّ من خصومي.

من هم خصومك يا سيد حسن..؟

لا أعرف..

لا تعرف..؟ أنت خاصمت الجميع، ووائل هذا أنت من أبقيته في المستودع رغم توصية تقرير التفتيش في حادث السرقة الأول بعدم إبقائه في المستودع.. أليس كذلكِ..؟ والآن تقول إنه مدسوس عليك..! يمكنك أن تنكر الآن رغم وجود الدلائل ضدك، لكن لدينا دلائل أشد إثباتاً عليك وعلى أعوانك تجعلك تعترف دون إنكار.

يحاول السيد حسن الدفاع عن نفسه بشيء من اللعثمة والارتباك.

أنا مدير عام منذ عشرات السنين توجه لي هذه التهمة..؟ أنا لم أحافظ على منصبي إلا نتيجة ثقة الجهات العليا بولائي لها..

ينظر إليه المحقق ويقول بتمعن:

للأسف.. إنك لا تستحق هذه الثقة التي تتكلم عنها. ألا تعلم أن جزءاً كبيراً من الفساد الذي يحصل هو نتيجة بقائك أنت وغيرك هذه السنوات الطويلة في مناصبكم دون تغيير..؟ لقد تعفنتم وتخلفتم وأصبحت أحلامكم

وآمالكم دنيئة لا تدور إلا حول ذواتكم ومصالحكم ومصالح أقربائكم فقط، لدرجة أنكم اعتقدتم أن القطاع العام هو مزرعة لكم تفعلون به ما تشاؤون أنتم ومحاسبوكم، وإذا كانت الجهات العليا أبقتكم طيلة هذه السنوات فقد أخطأت وقد استغللتم أنتم هذا الخطأ أبشع استغلال.. إنك يا سيد حسن متهم مع معاونيك في تهم عديدة أقلها:

التحريض على القتل.

الاشتراك في السرقة.

إتلاف المال العام وافتعال حريق لتضليل العدالة في معرفة أسباب سرقة الأموال العامة التي هي ملك الشعب، هل أتابع سلسلة الجرائم المرتكبة أنت وأعوانك..؟ هذا إذا لم ننسَ جريمة تلفيق التهم للأبرياء وإبعاد الشرفاء والغيورين على المصلحة العامة وعملكم في مبدأ الولاء والمحسوبية على حساب الكفاءة والمسؤولية.

أكتب عندك يا ابني:

م١ – إحالة كل من المدير العام للمؤسسة السيد حسن أفندي والمدير المالي السيد نزار ومدير العلاقات السيد أنور ومعاون مسؤول المستودعات المدعو وائل وصاحب وكالة السعد للمبيعات السيد مسعد وسائق السيارة ذات الرقم والمتواري عن الأنظار إلى القضاء للجرائم المرتكبة والمذكورة في قرار الاتهام.

م٢ – متابعة التحقيق مع كل من توسط في الجرائم المنوه عنها وإحالته إلى القضاء.

م٣ – الطلب من جهاز التفتيش إصدار قرار يتضمن حجز الأموال المنقولة وغير المنقولة للمذكورين أعلاه وزوجاتهم.

م٤ – الطلب إلى كل من تضرر من تصرفات المتهمين التقدم إلى النيابة العامة والادعاء على كل من سبب له ضرراً مادياً أو معنوياً وإيقاع القصاص العادل بالمتسبب.

كانت وصال تسير في ساحة المؤسسة عندما التقاها السيد سامي.

آ.. وصال.. هل يروق لك نهاية الجماعة..؟

لا تحسب أنني منهم وإن آمال تعرف ذلك يا أستاذ سامي.

ـ لدي علم بتحولك عنهم في الفترة الأخيرة وإني أعلم مقدار المساعدة التي قدمتها وساهمت في كشفهم والإيقاع بهم. على كل أنت سوف يتم استدعاؤك كشاهدة فقط.

وأنا عندي استعداد كي أقدم شهادتي الصحيحة إذا كان ذلك ينقذ الأبرياء ويدين المجرمين.

لا عليك يا وصال، أنت إحدى ضحاياهم لأنك تملكين جمالاً وشباباً وهم حاولوا استغلال ما تملكين.

أنا سعيدة لأنني استطعت أن أقدم خدمة لك بصورة خاصة ولخالد الذي ستظهر براءته قريباً.

التقت عينا آمال بعيني الأستاذ سامي فخفضت عينيها خجلاً..

بالفعل يا آمال، هذا ما يسرنا جميعاً، والإنسان الذي يحب، يحب الخير للجميع ولا يمكن أن يكون أنانياً رغم أن الشيء يمكن أن يحبه المرء

ويود أن يستأثر به إلا أنه يأبى ذلك إذا أحس أن هناك من هو أحق منه أو يناسب ما يحبه أكثر.

أحست وصال أن الحديث له طابع خصوصي لذلك آثرت الانسحاب.

أستأذنكما أود أن أنصرف.

إلى أين يا وصال..؟

أريد أن أذهب إلى مكتب الأستاذ.. ثم تضحك.. لم يعد له.. أريد أن أرتب الكتب والمراسلات..

اقترب الأستاذ سامي من آمال..

آمال حبيبتي.. اسمحي أن أقول لك ذلك..

احمر وجه آمال خجلاً لهذه الكلمة وقالت:

أرجو أن لا تستخدم في حديثنا سوى الكلمات المناسبة.

أنا أعرف أن قلبك معلق بغيري لكنك ستبقين حبيبتي بالمفهوم الإنساني والأخلاقي، أنت صديقتي ورفيقتي ولا أستطيع إلا أن أبارك اختيارك في الإنسان المناسب الذي ترغبين في العيش معه.



كان خالد يقرأ الرسالة وهو مستلق على الكنبة يضحك تارة ويهب من وضعية الرقاد إلى وضعية الجلوس تارةً أخرى وهو يشعر بسعادة غامرة كلما مر على كلمة أو عبارة تزيح عن نفسه ثقل الظلم الذي وقع عليه وتثير فيها الاستبشار بقرب ظهور الحقيقة التي انتظرها طويلاً.

ما بك.. تكاد تطير فرحاً..؟

أخبار رائعة ، مهمة جداً..

ماذا هناك..؟

تمت إحالة أعضاء مجلس الإدارة إلى القضاء بمن فيهم رئيس مجلس الإدارة وصاحب وكالة السعد الذي كنا نحذر منه كإنسان مخرب للمؤسسة وللملكية العامة.. ستظهر براءتنا قريباً وسأعود.

وآمال..

الرسالة منها.. الأهم هو أسلوب مخاطبتها لي، أنظر..

كيف تخاطبك.. أليس كالعادة..؟

إنها تقول.. حبيبي.. اسمع، لقد قالتها أخيراً..

لقد صرّحت بمكنون قلبها وهذا يهمني، أشعر الآن أنني أحبها أكثر من أي وقت مضى، سأعود يا محسن.. سأعود إلى حبيبتي التي كافحت من أجلي وصبرت واحتفظت بكلمة أحبك إلى الأخير، هكذا هو الحب.. سأعود وقد أزيح عن موقع القيادة في المؤسسة كل أولئك الذين ساهموا في ظلمي وظلم غيري وعاثوا فيها فساداً وإجراماً ضد الناس، إن من أسعد أيام حياتي ذلك اليوم الذي أرى فيه أولئك الظالمين وقد تم وضعهم في السجن وقيدت أياديهم الشريرة وغلّت من أن تعبث في أشياء الآخرين أو الإساءة إلى أحلامهم، وإن من دواعي سروري بل من سرورنا جميعاً أن نرى تلك النبتة الغضة التي وقفت متحدية عواصف الشر واستطاعت أن تقف شامخة قوية أمامهم لتثبت أن روح الإنسان أقوى من أن تنكسر بسهولة.

* * * * * * * * * *